الطريق إلى السعادة والقيادة

للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطريق إلى

السعادة والقيادة

للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة

الطبعة الأولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مقـــدِّمة

بقلم: الأستاذ المرحوم محمد الحسني رئيس تحرير مجلة البعث الاسلامي

هذا الكتاب الذي بين يدي القراء هو مجموع المحاضرات القيمة، التي القاها عمي العظيم سماحة الشيخ ابي الحسن علي الحسني الندوي عند زيارته لباكستان حضوراً في المؤتمر الاسلامي الآسيوي الاول الذي عقدته رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة، بكراتشي في ٦، ٧، ٨/ يوليو/١٩٧٨م

ان هذه المحاضرات تضرب على الوتر الحساس، وتحرك القلوب، وتنير العقول، وترسل الضوء على الطريق وتبعث على التفكير من جديد في قضايا الاسلام والمسلمين، والتربية والتعليم.

وقد اتيح لسماحة الشيخ الندوي ان يزور العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه مرة بعد مرة، واستطاع ان يراه

ويدرس احواله عن كثب، وقد صارح في كل بلد من البلاد الاسلامية التي زارها ابناءه الذين يحملون قلوبا خفاقة وضمائر حية متأملة على وضعه الفاسد المبكي، وقد اشاد بالمحاسن، وشجّع الخطوات الايجابية البنّاءة، ووضع الإصبع على الأدواء التي تنخر كيانه.

وقد وفق أن يتشرف أولا - في بداية المطاف - بزيارة الحجاز، الذي هو مهد الاسلام، ومهبط الوحي والقرآن، وأرض اليقين والايمان، والحب والحنان ومهوى أفئدة المسلمين ومرمى أبصارهم في أرجاء المعمورة، فألقى فيه محاضرات بعنوان «بين العالم وجزيرة العرب» أذاعتها الاذاعة السعودية، ثم زار مصر في أوائل عام ١٩٥١ م، فكتب مقالا بليغا قوياً يخاطب فيه مصر الاسلامية ويمسّ قلبها، طبع مراراً بعنوان: «اسمعي يا مصر»، وزار سوريا فتحدث اليها بعنوان «اسمعي يا سوريا»، وباح اليها بما يجيش في قلبه من احزان وآلام وآمال واماني وزار الكويت فخاطبها بعنوان: «اسمعي يا زهرة الصحراء» وحلب لها شطري الحقائق: الحلو والمرّ، وزار ايران ففاتحها بعنوان: «اسمعي يا ايران»، وزار المغرب الاقصى، فخاطب اهله الفضلاء وابناءه البررة في مقاله «نحن الان في المغرب»، وزار اوروبا، فتحدّث اليها من المستوى العالي والقمّة الشامخة - شأن المؤمن الواعي المدرك للحقيقة - بعنوان: «حديث مع الغرب»، وزار امريكا، فناداها

بعنوان: « احاديث صريحة في امريكا »، ودلّ على الاخطار التي تهدّد النوع البشري، وذكّر الجاليات الاسلامية، وابناء الاسلام الذين يعيشون في امريكا أو يقيمون فيها لتحصيل العلوم والثقافة، او لتحصيل ذات اليد، ودرسهم الاصيل، ومسئوليتهم الاساسية ورسالتهم المشرّفة.. .لكنه ظلّ يشكو بلسان الحال على لسان الشاعر الفارسي:

« ما بحت اليكم إلاَّ بشيء قليل من اشجاني وآلامي، ورغم ذلك اخاف ان يسوءكم قولي، ويؤذيكم شكواي، وإلاًّ فان الحديث ذو شجون وفنون ».

ومن عجيب الصدفة أن دولة مسلمة مجاورة للهند - أعني باكستان التي يصح فيها أن نقول انها تقع على غلوة منا، كما يقول فصحاء العرب - بقيت محرومة حتى الآن من هذه السلسلة الذهبية « للإسمعيّات » حتى أتاح الله للشيخ الندوي عند انعقاد المؤتمر الاسلامي الآسيوي الأول أن يؤدي بعض مسئولياته نحو هذه الدولة المسلمة، وقد عرّج على باكستان في عودته من المدينة المنورة، حيث حضر دورات المجلس الاعلى للجامعة الاسلامية، وربما كان لنجاح زيارة باكستان وتأثيرها ونجاحها نصيب كبير لهذه الزيارة المشرفة للمدينة المنورة، وقضاء بعض الوقت في رحاب الحرم المكي.

وقد كانت زيارة باكستان في الوقت الذي تمرّ فيه

بمرحلة دقيقة حرجة، وتقوم على منعطف حساس، ان أرضها حـرمـت ـ طـوال مـدة ثلاثين عـامـا ـ القيـادة الاسلامية الرشيدة، وتطبيق الشريعة الاسلامية التي كانت لها بمنزلة ماء الحياة، وبقيت متعطشة اليها، ولكنه لم تتم قط محاولة جادّة لصوغ المجتمع الباكستاني في قالب التعاليم الاسلامية. حتى جاء أوانها في قيادة الرئيس ضياء الحق.

ان النداء الذي أرسله الشيخ النـدوي مـن خلال هـذه المحاضرات التي اسماها بـ «حديث باكستان» يخاطب كل مسلم واع مخلص معنيّ بقضايا الاسلام والمسلمين في أرجاء الأرض، أن يعمل ـ جهده ـ على تمهيد الطريق للانتفاضة الاسلامية بكل اخلاص وعزيمة، وجهد دائب، وشعور صائب، فقد تراكمت على هذه الطريق أنقاض لا يعلمها إلاّ الله بفعل اهمالنا وتقصيرنا، وثورتنا على أحكام الله، بل وبمؤامراتنا المتواصلة، وعملياتنا الهدامة المتتابعة، وازالة هذه الأنقاض تحتاج الى ثورة عارمة شاملة في المجتمعات الاسلامية المتغرّبة، وهذه الثورة وحدها هي القاعدة الصلبة المتينة التي يمكن عليها تشييد صرح الانقلاب الاسلامي اليوم.

وقد سنحت للشيخ النـدوي في هـذه الزيـارة فـرصـة الاحتكاك بكل طبقة من طبقات المسلمين في باكستان، وبكل نوع من الرجال المنتمين الى مدارس فكر متنوعة وتحدث الى كل قطاع من الناس، الى رجالات القانون،

ورجـال العلم والفكـر، وخبراء التعليم والتربيـة، وأسـاتـذة المعاهد والمدارس والجامعات وطلابها، والجماهير السذّج من المسلمين المخلصين، والحكام ورجـال المنـاصـب الرسميـة العليا، والتجار ورجل الشارع.

وغطّى هذه المحاضرات ـ ولا سيما المحاضرات التي ألقيت على منبر المؤتمر الاسلامي الآسيوي الاول ـ الاذاعة والتلفاز والصحف في باكستان وفي كثير من الدول العربية، واستمع اليها المسلمون في شـوق وحفـاوة، وتـركـت في قلوبهم آثاراً طيبة مثمرة باذن الله، وقد لعبت دورها في القضاء على القلق النفسي والتبلبل الفكري والوضع المتوتر المتقلب، الذي ربما كان الاهمال بشأنه يؤدي الى أضرار فادحة لا تتدارك وخسارة لا تعوّض.

وقد كنت مرافقا لسماحته في هذه الرحلة المباركة فلمست هذا التأثير في كل صقع من أصقاع البلد... وشعرت كأن ملائكة الرحمن تباركه ونصرة الله تحالفه.

وهذه هدية ثمينة الى جميع أبناء الاسلام وولاة الأمور، وقادة الفكر، وساسة البلاد، ورجـال التربيـة والتـوجيـه، وزعماء الأحزاب والحركـات في كـل الدول والمجتمعـات الاسلامية ـ بما فيها الأقطار العربية العزيزة ـ فلو غير اسم المكان والمناسبات التي ألقيت فيها هذه المحاضرات ووجه فيها هذا الحديث، لما شعر القارىء بأنها محاضرات أو أحاديث خوطبت فيها بـاكستـان وشعبهـا العظيم وقيـادتها

المؤقـرة، ومؤسساتها العظيمة، واعتقد بذلك انها هدية في مكانها وأوانها، لكل بلد اسلامي، وشعب مسلم... انها أمانة قيمة وثمرة حلوة لهذه الرحلة التاريخية نسلمها الى الأيدي الأمينة الصناع.

أرجـو أنها تحرك مـن قلـوب المسلمين في كـل بلـد اسلامي ناهض ساكنا، وتعين على فتح الأبواب الموصدة التي استعصى فتحها على قوة السواعد والبنان، وقوة الخطابة وطلاقة اللسان، والتي تنتظر منذ مدة ذلك الفاتح العبقري الذي يستطيع أن يفتح القلوب والعقول معا، والله ولي التوفيق.

وقد كانت المحاضرات - طبعاً - في اللغة الأرديـة، لغة شبه القارة الهندية للمسلمين، نقلها الى العربية الاستاذ نور عالم الأيني النـدوي مشكوراً، وقد كان موفقا في ذلك وتصفحه صاحب المحاضرات، وتناول الكتاب بالتنقيح والحذف والزيادة.

١٠/ شوال ١٣٩٨ هـ
١٦/ سبتمبر ١٩٧٨ م

محمد الحسني
لكهنئو - الهند

القرآن والايمان، ولغة رابطة العالم الاسلامي الرسمية التي كنت أتحدث من منصتها، فرأيت أن أحل مشكلتي باختيار بيت بيت من تلك اللغات الثلاث التي لي المام بها، وبما أن كثيرا منكم أو أكثركم لم يكن حاضرا فها أنا أعيد انشادها أمامكم:

وقع اختياري من الشعر العربي على البيت الآتي:

حمامة جرعي حومة الجندل اسجعي
فأنتِ بمرأىً من سعاد ومسمع

وقلت: انكم أيها السادة! كلكم «سعاد» وكلكم سعداء، والحمد لله.

وكان بمستطاعي ان اختار من الشعر الفارسي بيتاً من قصائد أي من «عرفي» او «نظيري» او «حافظ» او «جامي» فحول الشعراء في ايران، لكني استحييت من الشاعر الاسلامي الدكتور محمد اقبال الذي هو أكبر شاعر فارسي انجبته هذه الديار بل هذا العصر، فلم أستطع ان افارقه الى غيره من «عرفى» او «نظيرى»، فوقع اختياري من شعره على هذا الشعر الدافق بالحياة الناطق عن الواقع:

تا تو بيدار شوي، نالـه كشيـد م ورنـة
عشق كاريست كه بـ آه وفغـان نيـزكننـد

يقول: «حرصاً على ان تنتبهوا أيها الاخوان! وان

اوقظ فيكم نائماً، وأحرك فيكم ساكناً، أرفع نشيجي، وارتفع بانتحابي، والآ فان « الحب والعاطفة » شيء يستطيع ان يمارسه الانسان في هدوء وفي صمت ودون ابداء عن الحرقة والجوى ».

واخترت من الشعر الأردي البيت الآتي:

امير جمع هين احبـــاب درد دل كـــه لـ
پهـر التفـات دل دوستـان رهـ رهـ نـــه رهـ

يقول الشاعر ـ الذي تلقب في الشعر بلقب « امير »:

« ان الاخوان والاحباء مجتمعون، فتحدث اليهم عن شجونك واحلامك واحزانك وآمالك، وانتهـز الفـرصـة، فربما لا تجد مثل هذه اللفتة الكريمة الحانية منهم مرة اخرى »

وانما أعدت الحديث لان هذا البيت الاخير يتفق مع الجو الآن ايضاً.

ايها السادة! ارى أننا ـ بصفتنا شعباً مسلماً، يحمل رسالة، ويحتضن دعوة، ويملك الأمر والنهي، ويتمتع بالثقل السياسي، ويصلح للقضاء على الظلم والعدوان ولتعليم درس العدل والمساواة، وتبليغ الرسالة الالهية الى العالم من مستوى عال ـ اجتزنا بيومين حاسمين حساسين:

١ ـ حينما كانت الدولة العثمانية تجتاز مرحلة مصيرية

حاسمة في حياتها وكان لها ان تقرر، هل تبقى كدولة مرفوعة الرأس، مسموعة الكلمة، مرهوبة الجانب، تملي ارادتها على الدول والحكومات، وتؤثر في خريطة العالم السياسية، ام لا، هل تبقى كدولة حارسة أمينة للامة الاسلامية والرسالة المحمدية، أم لا، والواقع ان هذا التقرير كان بعيد المدى، عميق الجذور، مترامي الابعاد، فلم يكن تقرير مصير الشعب العثماني، بل كان تقرير مصير الشعب المسلم في ارجاء العالم، وذلك ان الرسالات قد يرتبط مصيرها بمصير الشعب الحامل لها، لان الرسالات ليست شيئاً يتعلق بين السماء والارض، كما ان الامم لا تعيش في الجوّ، وإنما تعيش على هذه الارض، على كلّ فكان للأمّة الاسلامية ان تقرر يوم ذاك، أأنها تفرض سيطرتها السياسية على الشعوب والأمم وتثبت اهميتها في حوادث الوقت، ووقائع العصر، وفي تغيير مجرى التاريخ، أم لا، وكان هذا يوم من اليومين.

واليوم الثاني هو ما نعيشه اليوم وبلدنا واقف على منعطف حساس

ان باكستان اليوم واقفة على منعطف دقيق، والتاريخ حابس انفاسه، وكاتب الحظّ ممسك بقلمه، مستعد للتسجيل، ينتظر ويترقب، ان هنالك مناسبات كثيرة يمكن أن يرى فيها الانسان الأرضي - اذا كانت رؤية الامور الغيبية بالامكان - كيف يجلس كاتب الحظ ينتظر ويرتقب القضاء

الالهي، ولا أقول: انه ينتظركم ولكن اقول: انه ينتظر القضاء الالهي الذي لا رادّ له، وهذا القضاء يتوقف على امور كثيرة، ولا يتوقف عليها - حاشا لله - لان الله محتاج الى أحد، بل ذلك يرجع الى السنة الالهية، فأن الله تعالى ينظر الى مدى اخلاص الامم، وعزمها وطموحها وصلاحيتها، وهناك تقديرات وقضاءات تتبدل وتتغير، ويمكن تبديلها، وذلك هو «التقدير المعلق» في التعبير العلمي القديم، فهذه «التقديرات المعلقة» يمكن أن ترى العيون «المبصرة» - اذا كان عند اصحابها رصيد كاف من دراسة عميقة للقرآن الكريم - كأنَّ كاتب التقدير ينتظر القضاء الالهي بصددها، ويترقب ما يكتبه فيما يتصل بالافراد، أحياناً، وفيما يتصل بالجماعات أحياناً أخرى، ومثل هذا الوقت قد تساوي كل لحظة من لحظاته قروناً، لان زلّة واحدة وقتذاك قد تغرق سفينة أمة بأسرها، وما أصدق ما قاله الشاعر الفارسي:

«ذهبت انتزع الشوك من قدمي، فاختفى محمل الحبيب عن نظري، لم يستغرق هذا العمل الآ لحظة من الوقت، ولكني تخلّفت عن ركب الاصدقاء بمسافة قرن كامل»

أيها السادة!

ان الشاعر قد يشير في شعره بقوة مخيّلته وصفاء قريحته الى معان بارعة ذات الدلالات العجيبة، لم تتحقق مصاديقها بعد، وقد تتحقق بعد سنين طوال، وربما -بعد قرون

واجيال، فتأتي تفسيراً صادقاً لذلك الشعر، فتتجلى روعته وجماله وعمق معناه.. ومن هنا فاني لا اكاد اتأكد من أن الشاعر - الذي قال هذا البيت الخالد - قد مرّ في الواقع بهذه القصة التي حكاها في بيته الرائع، فقعد احد من رفاق قافلته يستخرج الشوك - الذي نفذ في داخل قدميه في بعض الطريق - من عقب قدميه فمضت القافلة بعيداً، وتخلف عنها.. لا أدري ما كانت هذه القافلة ومن كان هذا المسافر، وما هي المعاني التي ارادها الشاعر في هذا البيت، والى أي حادث أشار ولكني على يقين بأن هذا الحادث - بجميع محتوياته - لم يكن مصداق هذا البيت الحيّ.

ان هذا الشاعر لم يخطر منه على بال انه ستبرز هناك دولة، وستنهض هناك قوة، وستسير هناك قافلة، قافلة الامة الاسلامية، ويتخلف رفيق من هذه القافلة - وهو باكستان - عن رفاقه، من أجل أن ينتزع شوكاً من قدمه، - ولا أريد أن أشير الى هذه الاشواك بالتحديد، لان ذلك يقلل من قيمة هذا البيت، ويحط من شأن «الموقف»، وأترك هذا الامر اليكم لكي تتصوروا ما شئتم من الاشواك التي أصابت الارجل، والجروح التي اصابت القلوب - ولكن الواقع أن هذا البيت لم ينطبق على واقع ما من ذي قبل كما ينطبق على الواقع الذي نعيشه نحن اليوم.

« الرفيق العظيم » من رفاق
ركب الامة الاسلامية

حقاً ان باكستان رفيق جليل من رفاق قافلة الامة الاسلامية، والقافلة ماضية في الطريق، فاذا ما قعد هذا « المسافر الجليل » ينتزع « اشواكاً » أصابت رجليه، وتأخر في العمل او غلبه النوم، او هبَّ يتخاصم مع أحد من « المسافرين » فاذاً أخاف ان يتخلف .. أيها السادة! ان زلّة واحدة في هذا الوقت تحدث تحوّلا جذرياً في مصير الامة الاسلامية، وان صنيعكم - خطأ كان ام صحيحاً - سيترك تأثيراً بعيد المدى على مصير الامة الاسلامية، وربما يضع في مصيرها قفلا، فقد مفتاحه - لا قدر الله -.

ومن ثم فأنتم في موقف حساس دقيق يتطلب تضحيات جساماً، ومن المؤسف جداً ان الاسراف في استخدام هذه الكلمة الشريفة، والاخطاء في مواضع استعمالها قد افقداها تأثيرها، والاّ فانها شيء ما ان قرع السمع حتى تقشعر منه الجلود، وترتجف له القلوب، لكننا - مع الاسف - أصبحنا اليوم كلما نستخدم الكلمة لا تتطرق منها الاذهان الآ الى التضحية بالوظائف، او التضحية بشيء زهيد من المرتّبات والمناصب.

أيها الاخوة! ان التضحية شيء مقدس ينتهي نسبه الى سيدنا ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ان لكل

شيء نسباً، فنسب المساجد كلها على ارجاء الارض، ينتهي الى بيت الله في مكة ـ المسجد الذي بناه سيدنا ابراهيم عليه السلام ـ وكل مسجد لا يتصل نسبه بمسجد ابراهيم هذا، فلا يستحق أن يسمى بيت الله، وانما هو «مسجد ضرار»، وكذلك كل مدرسة لا ينتهي نسبها الى صفّة المسجد النبوي على صاحبها الصلاة والسلام، فلا تستحق أن تسمى مدرسة، لانها ـ اذاً ـ منطلق الجهل والضلال، وليست موضع دراسة وعلم وهدى، وعلى ذلك ف «التضحية» التي لا يتصل نسبها بروح الايثار والاخلاص، والوفاء والولاء، لدى سيدنا ابراهيم وروح الصبر والرضا، والتوكل والفداء، لدى ابنه ذبيح الله اسماعيل عليهما السلام فأنها ليست بصحيحة النسب، وذات أصل كريم وعرق عريق.

ثلاثة أنواع من التضحية

والظروف تتطلب منكم اليوم ثلاثة أنواع من التضحية، ولكل نوع منها امام في تاريخنا الاسلامي، فهناك نوع من التضحية قام به سيدنا خالد بن الوليد في ساحة معركة اليرموك، ونوع آخر قام به سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه ازاء سيدنا معاوية رضي الله عنه قضاء على الاضطراب في صفوف المسلمين، ونوع ثالث من التضحية قام به عمر بن عبد العزيز رحمه الله ـ من أجل اعادة المجتمع الاسلامي الى الحياة الاسلامية والسيرة المثالية، وذلك بتحويل حياته

من النعومة الى الخشونة ومن الترف الى الكفاف، والقناعة باليسير القليل، واحداث تحوّل كلي في كل جوانب حياته، والتغاضي عن مصالح عائلته وأعضاء أسرته، وهذه الأنواع الثلاثة من التضحية يحتاج الشعب المسلم الباكستاني اليوم أن يقوم بها في وقت واحد ومعا.

التضحية التي قام بها سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه تعلمنا أن لا يتقطب الجبين لو عزل صاحبه عن منصب قيادة الجيوش وهو في ساحة المعركة يحرّك الأجناد ويقود الجيوش، ويطارد الأعداء، حتى يسجل له التاريخ أمثال هذه الكلمات الذهبية الناصعة الغرّاء التي سجلها لخالد بن الوليد والتي عصارتها: لو كنت أجاهد من أجل عمر بن الخطاب وابتغاء رضاه، لتوقفت عنه، ولكني إن أقاتل في سبيل الله وابتغاء وجهه الكريم، وطمعاً في رضاه وثوابه، فلن يفت شيء في عضدي، ولن يقلل من حماسي ونشاطي.

وقد شهدت الدنيا كيف صدق خالد في وعده، ولم يتغير قيد شعرة عما كان عليه من الحماس للجهاد، والشوق للشهادة، والشغف بإعلاء كلمة الله، ان التاريخ البشري كله يعجز عن أن يقدم لذلك نظيراً، ان المؤرخ يقف مشدوها واجما أمام هذه الثقة بالله، وشدة الشكيمة، وغاية العزيمة، التي كان يتمتع بها سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، حيث يعزل امرأ ـ خلال المعركة الحامية ـ كان قد اقترن اسمه بالفتح والانتصار اقترانا أصبح الفرق بينهما عسيرا،

حتى صار رمز الفتح والانتصار (SYMBOL) كان يتساءل الناس: خالد يخوض المعركة أم لا؟، فاذا علموا أنه موجود سيخوض المعركة، يتأكدون من كسب المعركة، وكانت القلوب تمتلأ أملا رجاءً وجذلاً وسرورا، كانوا يتوكلون أصلا على الله ولكنهم كانوا يتفاءلون بـوجـوده في المعركة، لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطو هذه الخطوة الجريئة الخطرة - من أجل أن يضرب مثالا رائعا لهذه الأمة الى يوم القيامة - التي أعتقد أنه لم يخطها أحد في تاريخ الحروب والمعارك، ولم يركب هذا الخطر العظيم، يأتي الرسول من المدينة المنورة، ويسلم الى خالد مرسوم عزله ونصب أبي عبيدة مكانه وهو يباشر الحرب، ويعلم الجنود كلهم أن خالدا لم يعد قائدا لهم أو قائدا للجيوش الاسلامية، وهنالك يقول خالد هذه الكلمات الأمينة المؤمنة المذكورة أعلاه.

ايثار مصالح الأمة على جميع المصالح والأغراض الشخصية

والنـوع الثاني من التضحية الذي يجب عليكم أن تقوموا به، هو أن تؤثروا مصالح الأمة على المصالح الشخصية، والمصالح الحزبية والمصالح القومية، بل أتقدم خطوة فأقول على مناهج العمل والخطة التي اخترناها للعمل الاسلامي، لأن الأحزاب يجب أن تكون في خدمة الأمة والاسلام لا

بالعكس، وقد قلت مرارا وفي كثير من المناسبات والحفلات أنه لو تطلبت مصالح الأمة أن تمحى هذه الأحزاب والجماعات كما تمحى العبارة الخاطئة، لأكون أول من يتشرف بهذه السعادة ويحوز هذه الكرامة، وتلك هي التضحية التي تلقينا درسها من صنيع خالد بن الوليد رضى الله عنه وأرضاه.

أما التضحية التي قام بها سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فربما لا يكاد يدرك خطورتها وأهميتها كبار مؤرخينا، لكنها في الواقع لا تقل أهمية عن أي تضحية مخلصة عظيمة.

كان الحسن رضي الله عنه سبط الرسول صلى عليه وسلم، وكانت السيوف بأيدي أنصار علي رضي الله عنه مشهرة لم تغمد بعد، وكل من استعرض الظروف وحلّل الملابسات، وقلّب الأحوال، كان له أن يقول: ان القوة العسكرية الكبرى لا تزال وفية للحسن، بالاضافة الى العلاقة العاطفية التي كانت تربط بينه وبين المسلمين، والدلائل الشرعية التي كانت تؤيده، فكان سبط الرسول، والخليفة الراشد، تمت البيعة على يديه.

لكنه استعرض الواقع فوجده مريرا، رأى أن مثل هذا الصراع لم يعد منتجا، وقد استنفد مقدارا صالحا من قوة والده العظيم، وجهده ووقته، فتنازل عن الخلافة لمعاوية

رضي الله عنه عن اجتهاد منه وعلى بصيرة.. هذه تضحية كبيرة.

وتضحية أخرى قام بها أخوه الحسين ضد يزيد على اجتهاد منه كذلك، ولا أرى هناك تناقضا بين الاجتهادين أو تخالفا بين الرأيين، ولا تسمح لنا المناسبة أن أتحدث عن الأسباب التاريخية، لكني أرى أن الأحكام تتبدل بتبدل الظروف و الملابسات، فكان اجتهاد الحسن صوابا بالنسبة الى ظروفه، وكان اجتهاد الحسين صحيحا بالنسبة الى أوضاعه، وكلاهما أخذا بالعزيمة، وعملا بالحكمة، ولم يجبن أحد منهما، ولم يستكن، ولم يتخاذل، واني لن أومن بأن الحسن تنازل عن الخلافة من ضعف، أو عن ضغط خارجي، بل كان ذلك قضاء تنبأ به جده النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم بقوله:

«ان ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[1].

وكذلك التضحية التي قام بها عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه، لها خطورتها وأهميتها، فقد كان مضرب المثل في ظرافته وأناقته، وفي تنعمه وترفهه، حينما كان واليا للمدينة، وكان عضوا من أعضاء الأسرة الحاكمة، وقد

١- صحيح البخاري، رواية عن أبي بكر رضي الله عنه، وقد جاء في بعض الروايات: «وسيصلح الله به».

كانت موضته قدوة بل غاية الجمال والكمال لدى الشباب والظرفاء، وكانت الجواري يتعلمن مشيته - التي كانت تسمى « المشية العمرية » - ويحاكينها من حسنها، كان يستخشن الثياب الثمينة ويزري بالملابس الفاخرة.

لكنه ما ان تولى الخلافة حتى تحوّلت حياته كليا، فأرجع مزارعه الى ما كانت عليه في عهد الرسول ﷺ، ورد ضياع أقرب أقربائه الى بيت المال ورفض أرخص ثوب أعد لارتدائه، واستغلاه، فاستعبرت عينا خادمه اذ تذكر أنه كان قد رد أغلى الأثواب وتفادتها عيناه، وتنازل في مأكله ومشربه ومستوى معيشته الى ما ربما لم يتنازل إليه أزهد الزهاد، وبلغ من تحفظه وأمانته الى أنه يقوم بالأعمال الرسمية في ضوء الشمعة « الرسمية » التي زيتها من بيت المال ويدخل عليه رجل، فيستطلعه أحوال المسلمين في منطقته، اذ يعود الرجل فيستخبره أحوال أسرته وأعضاء عائلته فيطفىء الشمعة الرسمية بنفخة من فيه، ويطلب شمعة شخصية لأن الشمعة الرسمية ليست لتستخدم في الأمور الذاتية والأحوال الشخصية ان ذلك كله - أيها السادة - غيض من فيض، فان حياته كلها مثال عجيب فذّ للتحول الخارق المدهش الذي وقع في حياته، وعبارة عن تضحية قام بها رجل صاحب ضمير واع وقلب خاشع، وايمان راسخ، صانع للعجائب وخاف الله ربه في سبيل مصلحة الأمة والدولة.

القضية تتصل بمصير الأمة الاسلامية

أيها السادة! لا أدري أكان من سعادة جدي، أو من محنتي، أو من نعمة الله عليّ أو من امتحانه إياي، اذ وفّقني أن أزور وأشاهد العالم الاسلامي عن كثب وعن تجربة واختبار، توفيقا ربما لم يحظ به أحد في هذا المجلس الموقر - على تقديري لجميع السادة الحاضرين - وربما كان لي ذلك عن سوء حظ و سعادة جد في وقت واحد، أما سوء الحظ فاني رأيت العالم الاسلامي وهو يمر بظروف وأحوال وخزت ضميري، وآلمت قلبي وجرحت شعوري، ومزّقت كبدي، وأما سعادة الجد لأني تمكنت من أن أرى المسلمين عن كثب، وأحتكّ بهم، وأخالطهم، على كل فأصارحكم: ان القضية اليوم ليست قضية الأحزاب، أو قضية الجماعات، أو قضية المصالح الوقتية، انما هي قضية مصير الأمة الاسلامية، قد تكون العبادات مصونة معمولا بها، وقد تكون أنواع من المعاملات محافظا عليها ومأخوذا بها في حياة الناس، لكن الشعب الاسلامي أصبح لا يستطيع اليوم أن يفرض ثقله السياسي في خريطة العالم، ولم تعد له كلمة مسموعة في أي قضية، سواء أكانت قضية المسجد الأقصى أو قضية فلسطين، أو قضية لبنان، أو قضية قبرص[1]، هل ترون أن الشعب الاسلامي كله يقدر على

١- لم تكن قضية افغانستان حدثت بعدُ.

أن يقدم في القضية أو يؤخر، أصبح العالم الاسلامي بعد سقوط الخلافة العثمانية، لا تستطيع دولة من دوله، أو أسرة من أسر الشعب الاسلامي أن تفرض ضغطها السياسي ويثبت ثقلها الدبلوماسي في أي قضية من قضايا العالم الاسلامي، نعم، قد استطاع المرحوم جلالة الملك فيصل الشهيد أن يثبت جدارته وأهمية العالم الاسلامي، ولكنه مضى لسبيله ولم يعد من يخلفه في موقفه العظيم، وليست اليوم هناك أي دولة اسلامية تستطيع أن ترغم - باحتجاجاتها، أو بابداء كراهيتها وعدم موافقتها - قوة كبرى على مراجعة النفس واستخدام التأمل في قضية ما اسلامية.

أهيب بكم - يا سادة - أن تواجهوا الموقف، متعالين عن المصالح الجزئية وتواجهوا تحدي الوقت، بقوة المؤمن الواعي الخبير، وبجراءة الصديقين والصالحين، واذا سنحت لكم فرصة - بتوفيق من الله عز وجل - فلا تضيعوها في غير موضعها، ولو كان هناك فرد أو جماعة أثبتت جدارتها - ولو بنسبة العشرة في المائة - للتعاون معكم في مجال العمل الاسلامي، فلا بد أن يكون الاخلاص رائدكم، فتوفروا لها فرصة لكي تستخدم مواهبها، وتثبت أهليتها، لا بد أن تضعوا في الاعتبار هذه الملامح والأسارير، الأسارير التي بدت واضحة على وجه مصير الأمة الاسلامية، ان زلة واحدة منكم، وأنانية يسيرة، وعصبية قليلة، لغوية أو اقليمية، وثغرة متواضعة في صف الوحدة،

تعود بخطر عظيم وضرر كبير على الشعب الاسلامي في أرجاء المعمورة، وأرجو أن لا تحجموا مهما تطلب الموقف اليوم أو غدا عن أن تتنازلوا عن جميع الاعتبارات والمصالح، والأغراض والمنافع ازاء مصالح الأمة الاسلامية، وأن تترفعوا عن كل مناسبة، وعن كل موقف، وعن كل قضية يمكن أن تزرع اضطرابا نفسيا، واذا اضطررتم من أجل ذلك أن تنفضوا أيديكم لبعض الوقت عن المسائل الخلافية، فلا بد أن لا ترددوا ولا تتلكأوا لدقيقة واحدةٍ، وتتحتم عليكم أن لا تتعرضوا للمسائل الجانبية أو غير الهامة.

وأعتقد أن بعض الحركات الدينية لو أخذت الحذر من بداية الطريق و لم تتعرض للمباحث الجانبية والقضايا الثانوية لبعض الحين، لوجدت الطريق أمامها ممهّدة أكثر من اليوم، لكنها محاولات بشرية ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

القرن الحاضر يظمأ الى « معتصم »

أعتقد أنكم قد أنصفتم حديثي، واكتنهتم اشاراته وأبعاده، وأرى فيه كفاية ومقنعا، وأتضرع الى الله المولى الكريم أن يوفقكم أن تكونوا جنة للعالم الاسلامي كله، بل للمجموعة البشرية كلها، وللحق والعدل، والانصاف والمساواة، أينما وجدت، وأن تكونوا بحيث لا يقع ظلم في ناحية من نواحي العالم الانساني، احتراما لكم، وتقيما

لثقلكم المعنوي، وأن تكونوا بحيث يستصرخكم مظلوم في ناحية من الدنيا ويقول: « وامعتصماه »! كما استغاثت عجوز مظلومة في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله « وامعتصماه »! فأغاثها المعتصم، ان العالم اليوم يتطلع الى « معتصم » والقرن الحاضر بأمس الحاجة الى هذا المعتصم، وكما نحتاج الى امام الحرم المكي، ونحترمه نحن جميعا، وكما نحتاج الى عالم ديني حاذق متضلع، ونكرمه جميعا، كذلك نحتاج ويحتاج العالم كله الى جماعة تحتضن الحق والعدل وتتألم للانسانية، وتعيش في حب البشرية.

وبهذه الكلمات أختم حديثي، وأشكركم جميعا على أن وفرتم لي هذه الفرصة الثمينة للحديث، جزاكم الله جميعا، وشكر سعيكم.

الوَحْدَةُ الإسْلاميَّة وَمُتَطَلِّبَاتُهَا

(القيت هذه المحاضرة في حفل أقامته «مؤسسة همدرد» الأهلية (HAMDARD NATIONAL FOUNDATION) على دعوة من رئيسها سعادة حكيم محمد سعيد المؤقر، وذلك في فندق انتركانتينينتال بكراتشى (باكستان) في ١٣/يوليو ١٩٧٨ م، وحضر الحفل مجموعة كبيرة من أعيان البلد والأساتذة الكبار، ورجال الفكر والخبرة، والبارزين في الحياة الاجتماعية)

قال بعد الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

كلمة الوحدة جذابة كالمغناطيس

أيها السادة! اني مدين لسعادة الأستاذ حكيم محمد سعيد - حفظه الله - حيث وفر لي فرصة التحدث الى هذه النخبة المختارة، والى هذا الحفل الكريم، وأتاح لي أن أبوح بأفكاري، وأعبر عن مشاعري وعواطفي، ان ذلك لمنة على غريب، إقامته بهذا البلد محدودة بالأيام والليالي، والذي لا

يعرف بالضبط والدقة أعيان البلد ووجهاءه وقادة الفكر ورجال العلم والتربية فيه، ولا يعرف شأنهم ومكانهم حتى يتصل بهم مباشرة ويتحدث اليهم فردا فردا، فمن تيسر الله تعالى أن تدعى للاستماع لحديثه هذه النخبة الممتازة من أولئك السادة الذين يجدر كثير منهم بأن تشد الرحال للقياهم وحدهم.

ولكن بجانب ذلك كله تتضخم مسؤولية الخطيب أو الضيف، ويجعله الموقف في امتحان: الى أي مدى سيستطيع أن يستغل هذه النعمة، ويستخدم تلك الفرصة، وهل تدعه موجة الأفكار والانطباعات، وتزاحم العواطف، وفيضان القلب بمزيج من مشاعر الشكر والعرفان بالجميل والشعور بالواجب، أن يحسن التعبير - أمام السادة الحاضرين - عن مشاعره وأفكاره ونداء ضميره، أم لا ؟ .

وقبل أن أدخل في صلب الموضوع، أرى لزاما علي أن أحبذ سعادة الشيخ محمد سعيد المحترم على اختياره للحديث هذا الموضوع الذي يضرب على الوتر الحساس - نظرا الى حرج الموقف ودقة الظروف: ظروف الصراعات والظنون، والشكوك والشبهات، وظروف الدوافع والأسباب المتضاربة في مجتمع وبلد، مني - ولا يزال - بأن يعبر طريقا مفروشا بالأشواك، وأجمة شائكة مائجة بالقتاد.

أيها السادة ! كلمة «الوحدة» من تلك الكلمات العديدة

الحبيبة الأثيرة التي تحمل جذابية ومغناطيسية في دنيا الناس، والانسان يعشق «الوحدة» بطبيعته لأنها نداء ضميره، وصوت قلبه، ورضا ربه، ولا غرو فانه يعيش في دنيا الانسان هذه، ويتمتع بالحياة، ويتجمل بوجوده هذا البستان الأرضي، ويستخدم مواهبه، ويستغل تلك الأهليات التي حباه الله اياها - فهو في حاجة ملحة الى أن يعيش متعاضدا ومتعاونا ومتضامنا.

الصراع بين الوحدات

لكن التاريخ يشهد أن هذه الوحدات - على حساب طبيعتها ووظيفتها ومعانيها - قامت بدور التخريب أكثر من القيام بدور التعمير، فقد كانت الوحدة لتُوحِّد الانسان، وتثير فيه عاطفة الحب والحنان والأمن والسلام، ولتوجد جو الاعتماد المتبادل، لكن «وحدة» اصطدمت بوحدة أخرى أحيانا، كما اصطدمت «وحشة» بوحشة أخرى أحيانا كثيرة، على حين كان من المتوقع ان لا يكون هناك صراع ما بين الوحدات، مهما تصارعت القوى ومهما تصارعت الأشياء مع مثلها أو ضدها... من الممكن المعقول أن يتصادم التخريب مع التخريب، وأن تحارب الفوضى الفوضى، وأن تتصارع السلبيات مع السلبيات، أما أن تقع الحرب بين جمعية وجمعية ووحدة ووحدة، فتلك هي تجربة غريبة فريدة من نوعها، وانحراف عن الطبيعة لا يوجد له نظير في التاريخ البشري، وحكاية أليمة مؤلمة مخجلة، يتندى لها

جبين التاريخ ويسودُّ بها وجهه .

الا أن ذلك يرجع الى الأساس الذي تقوم عليه الوحدة، فلئن كانت الوحدة قائمة على أسس سلبية: على عاطفة العدوان، على اذلال الانسان، على شعور بسط النفوذ والسلطان، على التسامي والكبرياء، واستعباد العباد الأبرياء، فلا بد أن لا تقر مثل هذه الوحدة بوحدة أخرى سواها، لأن غمدا واحدا لا يسع سيفين، فحين تقرأون تاريخ أمة أو ديانة تجدون رواية متصلة الحلقات من الحروب الدامية، تجرى أنهار الدماء، وتقطع الرؤوس البشرية، وتؤلف منها القباب وتجعل البلاد خاوية على عروشها، وتثل العروش، ويهلك الحرث والنسل، وتداس الحضارات والمدنيات، اما اذا بحثتم عن الأسباب - في ضوء فلسفة التاريخ - وجدتم أنه كانت قد نشأت هنالك وحدة ترى سرَّ بقائها في القضاء على الوحدات الأخرى .

مجرد الوحدة لا تحمل قيمة، وليس لها وزن حبة خردل في الميزان

وقد دلت التجارب: تجارب النوع البشري - أن مجرد الوحدة لا تجدي نفعا، ولا تغني غناء، وانما المناط بأساس الوحدة، والغاية التي أريد من ورائها .

وأول وحدة نجدها في تاريخ ارتقاء النوع البشري، هي الوحدة الأسرية والعائلية، والوحدة القبلية، والوحدة

السلالية والعنصرية، والوحدة الجنسية، ثم نجد ـ بعد ما تقدم العالم البشري ـ الوحدة اللغوية ثم الوحدة الحضارية والثقافية.

وكانت الوحدة الحضارية والثقافية من بين هذه الوحدات الكثيرة، أكبر محط للآمال، وذلك لأن الحضارة والثقافة شيء لا يمت الى ايذاء العباد واهانة النوع البشري بصلة ما، لأنهما ـ الحضارة والثقافة ـ تعنيان الاعانة على زوال الشكوك والشبهات، وارتفاع الحاجز بين انسان وانسان، وأن تنشأ عن طريقهما عاطفة الحب والوئام والتعاون والسلام، والعدل والانصاف، وأن يحرص المرء على الاطلاع على حوائج أخيه وعلى أعذاره، وعلى مواضع ضعفه، فيشمله بعطفه وحنانه، ويسعى لتحقيق حاجته، وأن تنتبه في نفسه الدوافع على الاطلاع على أدبه وشعره، ولغته وثقافته... ومستغرب كل الاستغراب أن تشتمل الوحدة الثقافية والحضارية على جانب من العدوان، واستعباد المجموعة البشرية، والحرب ضد الحضارة البشرية.

لكن الحقيقة أن الحياة البشرية مجموعة من أنواع المتضاربات والمتناقضات، Contradictions حتى يعجز علم النفس الحديث أيضا عن ادراك أبعادها وأعماقها، فقد ينشأ في داخل الانسان انسان آخر، وقد يتبنى الانسان أغراضا تستهدف الاطاحة بالانسان، وربما تقوم هذه الأغراض على أنقاض أغراض انسان آخر، فلو كانت هناك فلسفة للحياة

لا تحيا، ولا تنمو، ولا تترعرع، ولا تخضر، ولا تثمر، الاّ بموت الانسان، وهلاكه، وانهزامه، وشقوته ونكبته، فذلك هو الداء العضال الذي يستعصي على المعالجة، واللغز الذي يعيي فكه العقول البشرية

التصور الاسلامي للوحدة

اما الاسلام فلا يقر من بين هذه الوحدات المصطنعة الكثيرة الاّ بوحدتين حقيقيتين، ويدعو اليهما دعوة مؤكدة، وهما أعظم الوحدات عصمة وبراءة، وأكثرها نفعا وخيرا للبشرية، واغناها ايجابية وفعالية، وتعميرا وانتاجا.

وهما : الوحدة الانسانية، والوحدة الايمانية، أما الوحدة الانسانية فهي تعني أن السلالة البشرية كلها أبناء أب واحد، وهو آدم أبو البشر عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد وقّع سيدنا محمد ﷺ على هذه الوحدة وختمها بكلمات معجزة جعلتها من التأكيد والتوثيق بمكان سوف لا يقر به أي ميثاق (CHARTER) للوحدة الانسانية في العالم، فقال ﷺ : «ان ربكم واحد، وان أباكم واحد» فوحدة الأب ووحدة الرب، هما الوحدتان اللتان أكرمت بهما الأفراد البشرية، فيرجع وجودها الجسمي وينتهي نسبها الطيني الى شخص واحد، مهما اختلفت ألوانها وأجناسها، وتنوعت لغاتها ولهجاتها، وتناءت ديارها، وتباينت في الأعمار والسنين، والسمنة والهزال، والطول والقصر، وكذلك ربها

وخالقها ورازقها واحد، فهذه المناداة بالوحدة الانسانية بهاتين الكلمتين الوجيزتين لا توجد مناداة بها أعمق منها، وأشمل وأدق وأكمل، وأكثر منها اتفاقا مع العقل والمنطق.

اذن فان هاتين الوحدتين تربطان الانسان بعضه ببعض ربطا موثقا، وتجعلان البشرية المنتشرة في الآفاق وحدة متراصة، وتجعلان الانسان اخوانا متعاونين متماسكين من ناحيتين: ناحية آصرة الأبوة - وقد تعرض رسول الله ﷺ للأبوة أولا، لأنها الحقيقة العادية المساغة لكل انسان - وناحية الربوبية، هذه هي الوحدة الانسانية الحقيقية الواقعية التي أعلن عنها النبي الأعظم سيدنا محمد ﷺ من خلال خطبته العالمية التي تخاطب النوع البشري في أرجاء المعمورة الى يوم القيامة، وكأنها شهادة أداها سيد الأنبياء والرسل عليه صلوات الله وسلامه، وذلك بمناسبة حجة الوداع.

وحدة جديدة فريدة

أنشئت في القرن السادس المسيحي وحدة جديدة، أنشئت على أساس عقيدة توحيد الله، وإفراد الله بالعبودية والربوبية، وعلى روح المواساة ومبادىء العدل والمساواة، وخدمة الانسانية والعطف عليها.

آخى النبي ﷺ بين المهاجرين من مكة الى المدينة، وبين الأوس والخزرج من أهل المدينة المنورة، وأقام بينهم صلة

الأخوة القوية، وألف من هؤلاء وهؤلاء وحدة، لأن هؤلاء المهاجرين كانوا غرباء يحتاجون الى مأوى يأوون اليه، فكانت هذه الآصرة آصرة جديدة من نوعها ما عهدتها البشرية على مدار التاريخ، قامت على مجرد أساس العقيدة والهدف... وكل من درس السيرة دراسة عميقة يعرف أن هذه الوحدة لم تكن وحدة حضارية أو وحدة اجتماعية، نعم... كان هناك نوع ما من وحدة اللغة، الا أن ما كان يوجد من الفارق بين اللهجتين المكية والمدنية وبين الأسلوبين اللغويين: المكي، والمدني، كان كافيا لتوسيع الفجوة بين أهل مكة وأهل المدينة، وتعرفون أنتم أن الاساليب اللغوية تختلف بعد قليل من المسافة، ويتعصب لها أهلها تعصب الناطقين باللغات المختلفة تماما، وقد جربت باكستان ذلك تجربة أعتقد أنه لم يجربها الا قليل من البلاد.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أؤكد أن ما يراه عامة الدارسين للسيرة النبوية من الاتحاد الكلي فيما بين المجتمعين: المكي والمدني، والمدنيتين: المكية والمدنية، ليس من الصحة في شيء، فأن الدراسة الحديثة للسيرة تقرر أن اختلافا واضحا كان يوجد بين المدنيتين، وكان أهل مكة ـ ولا سيما قريشا ـ يحملون الشعور الزائد بالتفوق (Superriority Complex) يدل على ذلك ما دار بين القرشيين الثلاثة وبين الأنصار، في غزوة بدر الكبرى، واخالكم تتذكرون أن

ثلاثة أبطال قرشيين وهم عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة، قد برزوا في الميدان - ميدان بدر - ونادوا المجاهدين المسلمين للمبارزة بدءا بالحرب على عادة العرب، فبرز لهم ثلاثة فتية من الأنصار، فقالوا: «ما لنا بكم من حاجة» ثم نادى مناديهم: «يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قومنا»، فلما برز لهم عبيدة وحمزة وعلي رضي الله عنهم بأمر النبي ﷺ قالوا: «نعم أكفاء كرام» مما يدل على نخوتهم القبلية وأنهم كانوا يعتزون بقبيلتهم وجنسهم، ولا يرون غيرهم أكفاءا لهم في قليل أو كثير، وبجانب ذلك كان العنصر الأهم من العناصر التي كانت تشكل المجتمع المدني هم اليهود الذين كانت لهم السيادة (Domination) والكلمة المسموعة، فقد كانت اليهود لها حضارتها، وثقافتها، ولغتها، وكانت هي الأمة الوحيدة المتحضرة الراقية في الجزيرة العربية - التي كانت لها مدارس ومعاهد تعليمية كانت تسميها «المدراس» (بكسر الميم وسكون الدال المهملة) - وكانت تدعو غيرها من الشعوب أمية، فقد حكى القرآن الكريم على لسانهم: «ليس علينا في الأميين سبيل»، ولا تزال اليهود تعتقد ذلك، فهي تصف الشعوب كلهم بكلمة «GOYIM» التي تعطي معنى «غير المتمدن» و «سيء الأدب».

على كل فلو توسعتم في دراسة السيرة لعلمتم مدى اختلاف المجتمعين: المكي والمدني، أحدهما عن الآخر -

رغم الوحدة اللغوية والوحدة النسبية في آبائهم العليا، وبما أن المجتمعين قطعا مراحل الارتقاء في بيئتين مختلفتين اختلافا تاماً فعادا وكأنهما مجتمعا دولتين مستقلتين، ومن ثم فكان من الممكن أن لا يندمج المهاجرون والأنصار اندماجا كليا، ولا تتألف منهم وحدة تحمل طبيعة واحدة كالأدوية المركبة بالعناصر المختلفة والعقاقير المتنوعة، ولا يتنازل كل من المهاجرين والانصار عن شخصيتهم المستقلة، واذا فلا تفيدُ الأدوية المركبة من المفردات الكثيرة ولا تعطي تأثيرا خاصا، اذا كانت المفردات لم تنحلّ فيها ولم تذب.

ولم تكن القضية قضية المهاجرين والأنصار فحسب، فقد كانت الأنصار تتوزعها القبيلتان العظيمتان - الأوس والخزرج - اللتان كانت بينهما معارك وحروب في الماضي القريب، كما تنشب الحروب بين أمتين متنافستين متخاصمتين، أو بين دولتين تتربص احداهما بالأخرى الدوائر، وكانت حرب بُعاث - التي وقعت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة بخمس سنوات - الحلقة الأخيرة من سلسلة الحروب الدامية، وقتل فيها الطرفان أحدهما الآخر شر قتلة، واذاق أحدهما الآخر ألوان الشقاء وسوء العذاب، وكانت لدى كل من القبيلتين «مزدوجة» تتحدث عن تاريخها وتتغنى بمجدها ومآثرها ومفاخرها، وكان اليهود يواصلون المحاولات - حتى بعد ما تشرفت القبيلتان بالاسلام - لاثارة نخوتها القبلية وغيرتها الجاهلية

بتذكير هذه الوقائع الماضية في النوادي والمحافل التي تضمها، فهناك رواية في كتب السيرة تقول: ان القبيلتين أوشكتا في احدى المناسبات ـ بفعل مكيدة اليهود فقد اشاروا أحد اخوانهم بانشاد ما نظم وقيل في حرب بعاث ـ أن تشتبكا وأن توقع كل منهما بالأخرى، اذ خرج عليهم رسول الله ﷺ، فأطفأ هذه الجذوات المستعدة للاتقاد بماء بارد من الاخاء الاسلامي والايمان والعطف والحنان[1].

على كل فكان بالأمكان أن تحدث هناك فوضى جديدة مكان الأمن والسلام والتضامن، وان تنشأ فتنة جديدة بدل أن تبرز قوة موحدة متعاونة، وكانت الأسباب لذلك متوفرة، كما سبقت الاشارة اليها في السطور السالفة، وكان الكيان اليهودي فعلا أكبر وأنشط وأقوى عامل (Factor) لكل هدم وافساد، ولا غرو فان اليهود يملكون من مؤهلات الافساد والتخريب ما لا تملكه أمة في عالم البشر، ولا يزالون يستأثرون بهذه المزية، اذن فكان في الحسبان أن يوقع العنصر اليهودي بينهما العداوة والبغضاء، ويجدد بينهما الحمية الجاهلية التي تجعلهما صفين متقابلين متحاربين.

هذا بالاضافة الى أن الحياة المكية كان عمادها التجارة، على حين كانت الحياة في المدينة تتوقف على الزراعة

١ـ راجع سيرة ابن هشام، الجزء الأول، ص/٥٥٥.

والفلاحة. والغرس والتشجير، وكان هذا الاختلاف في الحياتين ناشئا عن الاختلاف في الأوضاع الجغرافية، وقد كان هناك فرق بين الحياتين بالنسبة الى المعاشرة العائلية والحياة الأسرية، وكما أشار الى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في احدى المناسبات.

وحدة العقيدة والهدف

ولا أعرف أنه أقيمت هناك أخوة فيما قبل أو أوجدت آصرة - في مثل هذا التنسيق والدقة والوضوح - على مجرد أساس الوحدة في العقيدة والغاية، قامت هذه الأخوة فيما بين المؤمنين المخلصين الذين كانـوا يـؤمنـون بـالـوحـدة الانسانية والوحدة الربانية، وكانوا يتمتعون بالثبات على وحدة العقيدة ووحدة الهدف، وكان ذلك قوة جديدة أنشئت لانقاذ العالم المنهار، وتخليص الانسانية عن بؤسها وشقوتها.

قليل في العدد، جليل في الهدف

وما هو مركز هذه الجماعة الناشئة الممثلة لتلك الأخوة المنقطعة النظير؟ وما هو مكانه من الثقل والاعتبار، وما عدد أعضائها وأفرادها؟ يتحدث القرآن الكريم عن كل ذلك، فيقول:

﴿واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن

يتخطفكم الناس﴾[1].

اذا فكانوا من القلة بحيث يعدون بالأصابع، وكانوا من الخفة بحيث لا يحسب الناس لهم حسابا، ولا يلقون اليهم بالا، فكانوا يخافون كل لحظة أن يتخطفهم الأعداء تخطف الغربان والحدآن قديد اللحم دون أن ينالوا منهم بشيء، أو يؤذوا جنبهم بشوكة.

كانوا في هذه الحالة من الضعف والعجز والقلة والخوف، التي عبر عنها القرآن الكريم تعبيرا لا أبلغ منه ولا أروع وأدق، ولكن - على الرغم من ذلك لننظر ما هو المركز الذي كان يحتله هؤلاء المسلمون المستضعفون؟، لنعلم ضخامة المسئولية التي ألقيت على عاتقها... أيها السادة! أؤكد لكم أني أقضي من عجبي كلما أقرأ الآية التالية التي تتحدث عن مسئولية هذه القلة الموحدة... ما أضخم المسئولية وأدقها وأصعبها، وما أعظمها لدى الله وأكرمها! يقول الله عز وجل: ﴿إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾[2].. يخاطب الله المهاجرين والأنصار مؤكدا عليهم: أنهم ان لم يقوموا بتحقيق هذه الوحدة، ولم يدعموها ويحكموها بكل ما يلازمها، تكن في أرض الله فتنة عظيمة وفساد كبير... لو سمع هذه الكلمات رجل سياسي

١- سورة الأنفال - ٢٦.

٢- سورة الأنفال - ٧٣.

يقيس الأمور بظواهرها، لوقف مدهوشا حائرا واجما، ولتساءل: ما هو رصيد هذه القلة من القوة، وما هو واقعها من الاعتبار؟... انها كاللسان المسكين يحاصره ٣٢ سنا، أو كنقطة في المحيط، أو كقطرة أمام البحر الزاخر الهادر، فمن أين لهذه الوحدة القليلة المؤلفة من المهاجرين والأنصار قدرة القضاء على الفتنة العظيمة؟!...

لكن الله - العليم الخبير - أكرمها بهذا «الوسام» ومنحها هذه المرتبة من الشرف، لأنه يريد لها القيام بعمل جليل، وقيضها لحاجة ملحة، حاجة الابقاء على الحضارة الانسانية، وانقاذ العالم البشري الحائر.

لم يكن ليدرك صدق الآية القرآنية هذه، الا الذين يؤمنون بقدرة الله المطلقة، وكانوا يدركون روح هذه الوحدة الناشئة - رغم قلتها العددية - وكانوا يدركون قيمتها - Merit - وأهليتها، وثقلها المعنوي، وما كانت تتمتع به من الحماس والنشاط، والتألم والتفجع للانسانية المنكوبة، وما كان يتصف به أعضاؤها من الرهبنة في الليل، وقضاء النهار على صهوات الخيل، والآلام والأشجان التي كانوا يعيشونها، وكانوا يدركون كيف يضحون هم بأنفسهم وبأفلاذ أكبادهم وبأموالهم في سبيل الله، ومدى القلق الذي يعيشونه في التفكير في انقاذ النوع البشري من الدمار، ولنشر الهداية والفضيلة والفلاح في شرق الأرض وغربها، ولمنع الانسان أن يحارب بعضه

بعضا، ويأكل القوي منه الضعيف.

لا يدرك صدق هذه الآية الا هؤلاء الصنف من الناس، لأنه كان صعبا على العقول والأفهام - حتى بالقياس الى الفتنة المعاصرة لهذه الوحدة الناشئة، وفي تلك الملابسات السياسية والحضارية والمدنية - أن تدرك هذا السر، سر تشريف هذه الوحدة بهذه المرتبة العظيمة، وتكليفها بهذه المسئولية الضخمة، حتى قيل في حقها إذا لم تتحقق ولم تتقو، تموج الدنيا الانسانية بالفتن والويلات، وتذوق ألوان الشقاء والبلاء، ونيط بها مسئولية انقاذ العالم من نار الفساد والدمار التي كادت تأتي عليه، وتدعه رمادا، لو نظرتم في خريطة العالم المسيحي في القرن السابع - ولا أريد الخريطة الجغرافية، وانما أريد الخريطة الحربية، وخريطة الشعور المتطرف بالتفوق، والتبجح بالعدد والعدد والقوة - وما ترك من تأثير مؤلم على العالم، لعرفتم صدق ما صوره شاعر الاسلام حكيم الشرق الفيلسوف الاسلامي الدكتور محمد اقبال في أبياته الرائعة البليغة الآتية:

«ان الانسانية ذاقت ألوان الشقاء والبلاء، والدمار والهلاك، على أيدي «الاسكندر» و «جنكيز»، وتاريخ الأمم العريق ينادي رجال الفكر والتجربة ويتقدم اليهم برسالة خالدة: ان الشعور الزائد بالقوة خطر أي خطر على المرء، انه كسيل جارف يكتسح البلاد والعباد، ويبقي العقل والفكر، والادراك والعلم، أمامه كغثاء السيل».

عبء العالم كله على وحدة قليلة متواضعة

ألقيت مسئولية العالم كله على وحدة جديدة متواضعة نشأت حديثا على أرض المدينة المنورة، وأكد على هذه المجموعة الانسانية، بألا تألو جهدا في إحكام هذه الوحدة، وتعميق جذورها، وريها وسقيها، والسهر عليها، والايمان بها، والولاء لها، وأن لا تدخر وسعا في التفجع على الإنسانية الشقية، ولا يحولن بين هذه الغاية الكريمة الجليلة مصلحة ذاتية، أو مصلحة جماعية، أو أغراض حزبية... وحكم بأنها لو أهملت في هذا الشأن فان الاهمال يؤدي الى سلسلة من الويلات والى سيل جارف كاسح من الشقاء اللامتناهي.

صدقوني: أني كلما أقرأ هذه الآية الكريمة ﴿الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾[1] يأخذني العجب العجاب: وأسائل نفسي - في حيرة - أين هذه القلة المتواضعة من هذه المسئولية الجسيمة، هذه القلة التي كانت من صغر الحجم بمكان يحتاج المرء فيه للرؤية الى الألمعية والفراسة - وان لم يحتج الى استخدام المكبرة -.

ضغط على تلك المجموعة المتواضعة أن تركز كل عنايتها على تأصيل هذه الوحدة وتنميتها، لأنها لو قصرت في ذلك، لسوف تأكل هذه الوحدات - المنتشرة في ارجاء

١- سورة الأنفال - ٧٣.

الأرض، والناعقة هنا وهناك ـ النوع البشري كله، وذلك لأنها ليست في الواقع وحدات، وانما هي وحشيات، انما هي مؤامرات ضد النوع البشري، لأن هذه الوحدات تريد بعضها أن تنمو على حساب البعض وتتكون مجموعة، فتكون نذر خطر للمجموعات البشرية كلها، ولا تزال اليوم وحشيات تقوم على قدم وساق باسم الوحدات، ونرى اليوم أنواع الفوضى والتفريق والتمييز باسم التجمعات والجمعيات والجامعات، وأنصارها دائما يصفونها بوحدات، فمثلا: هي وحدة كذا، وهي دولة كذا وهي كتلة كذا، وهي فلسفة كذا، وهو النظام الفلاني، لكن هذه الوحدات كلها تكذب بعضها بعضا، وتحارب بعضها بعضا، ولا تعترف أي واحدة منها بأخواتها الأخرى أبدا، وكل وحدة منها قررت أنها لا تحيا الا اذا غابت كل الوحدات سواها في ضمير الغيب...

اذا فاذا كانت هناك وحدة يمكن أن تكون رحمة للانسانية كلها، فانما هي الوحدة الانسانية والوحدة الايمانية ـ التي يصح التعبير عنها بالوحدة الاسلامية ليس الا.

الوحدة اللغوية وجناياتها

هذه اللغة التي هي غاية في البراءة والعصمة، والتي تتساقط كلماتها عن الأفواه البشرية كالأزهار في جمالها وبهائها، هذه اللغة التي وضعت للتأليف بين القلوب،

ولادخال السرور والفرح عليها، ولكي تكون وسيلة التغني بالحب والمودة، ولتقريب الانسان بعضه من بعض، هذه اللغة التي استخدمت كترجمان صادق لعواطف الحب، وللكشف عن أسرار الطبيعة والحياة، هذه اللغة التي طالما أطربت الانسان وجعلته يهتز من النشوة، وطالما كانت رسول الحب والسلام، والرحمة والأمان، والعطف والحنان، ورفعت الحاجز النفسي فيما بين القلوب المتقاطعة، وجبرت القلوب المتكسرة، وفجرت أنهار الود والوئام، انها كانت السبب في بعض الأحيان في الفتك بمآت الآلاف من النفوس البشرية، هذه هي التي قامت من أجلها مجاوز وحشية وذُبِح فيها الذين كانوا يحملون اللسان الذي كان يحمله القتلة الوحشيون.

هذه الوحدة اللغوية المزعومة، والحب الزائد لها، والعصبية العمياء من أجلها، قد فعلت الأفاعيل بأولئك الذين لم ينبسوا بشيء سوى كلمة الحب والحنان، والذين أحيوا الليالي بذكر الله وعمروا خلوات الليالي بالتسبيح والمناجاة مع الله، انها جرعتهم كأس الموت، وولغت في دمائهم.

ان هذه اللغة اذا جعلت أساس وحدة مصطنعة ما أنزل الله بها من سلطان، وليس لها وزن حبة خردل في الميزان، فانها تدع جهود الأنبياء كلها هباءا منثورا، وتتحول الى قوة هادمة تهدم كل ما بنته الأوائل في آن واحد، وتذهب

بكل ما قام به السلف من جهود الاصلاح ومحاولات البناء، وتأتي على الثروة الحضارية والثقافية كلها في ثانية أو أقل... ان الوحدة اللغوية - أيها السادة - جرَّت من الويلات والشرور ما جعل الانسانية تقف أمامه مدهوشة واجمة، وأفقدها الشعور والوعي، وقد اكتويتم بهذه النار[١]، ولا يزال هذا الخطر الأسود يحدق بكم، اني أخاف أن ينهض داهية مغرض ويستخدم اللغة كوسيلة ناجحة لاقامة الحواجز والفروق، ولإثارة الحمية الجاهلية، وأن يستغلها لأغراضه السياسية... حقا ان هذه اللغة تستطيع اليوم أيضا بكل جدارة، أن تلعب ذلك الدور التخريبي الذي لعبته السيوف في أيدي «سيرز» و «قيصر» و «جنكيز».

الوحدة الحضارية ونتائجها الوخيمة

وكذلك الحضارة، فقد كانت رسالتها الوحيدة: أن يتحضر الانسان، وأن يشعر بمواضع الضعف في نفسه، ويعترف لغيره بالفضل لو كان يتصف به، يعشق الحسن والجمال حيثما وجد، ويقدر الفن والاناقة في شتى صورها وأشكالها، ويطرب اذا أنشد عليه أحد شعرا بليغا يجمع

١- اشارة الى مجزرة باكستان الشرقي، وليرجع للتفصيل رسالة «جاهلية اللغة» طبع «المجمع الاسلامي العلمي» ندوة العلماء لكهنئو، الهند.

الجمال الفني والموسيقي، ويعجب بالذكاء والعبقرية والبطولات والمآثر مهما اتصف بذلك شعب وأمة، وأن يعتبره ملكا لنفسه بصفته ثروة انسانية مشتركة... كان من اختصاص الحضارة أن ينفخ في الانسان الشعور بأن المآثر مهما وجدت وحيثما وجدت هي كأنها ملكه الشخصي، فليحتضنها، وليقدرها حق قدرها، لكن... الحضارة، حينما تحرم التوجيه الرباني، وتحيد عن الهدي النبوي، لا تعود حضارة، بل تتحول آلة تعذيب وابادة ودمار للانسانية، أفما قرأتم قصة محاربة الحضارات للحضارات، وقصة صراع الثقافات مع الثقافات.

أيها السادة! قد افتضحت اليوم الأسطورة القائلة بغناء مجرد الوحدة، وقد تقرر بما لا يدع مجالا للشك أن الوحدة - أي وحدة كانت - اذا لم تمدها الوحدة الايمانية والوحدة الانسانية فانها تتحول إلٰها يُعبَد، وتقدم له القرابين، وربما تصبح بدل أن تتنعم بها الانسانية، ويطيب بها العيش، وتلتذ بها الحياة وتتحقق بها الأماني، وتتجسد بها الأحلام، وتتعلل بها البشرية، وتشبع بها العواطف، وترضى بها الرغبات - دينا، لها كل ما للدين من تحمس واخلاص، وتقديس واجلال، وربما تعود فلسفة ونظاما يفرض على الانسان، رغب فيه أو رغب عنه، ويرغم على الاذعان له والخضوع لجلالته... انها جرّت الويلات على الانسانية

آلاف مرات، وعهدتها الانسانية في أدوارها الكثيرة ذئبا ضاريا شرسا.

السبب في الحربين العالميتين: الأولى والثانية

أيها السادة! قد يكون فيكم كثير ممن أدرك الحربين العالميتين: الأولى (١٩١٤م) والثانية (١٩٣٩م)، وقد يكون فيكم من لم يعهد الا الأخيرة... فماذا كان السبب - يا ترى - في هذه المجازر، وهذه الاغارات والهجمات، والحروب الدامية، هل كان ذلك صراعا بين الحق والباطل؟، هل كان هناك باطل يطارد الحق، فأرادت دولة، أو أمة، أن تأخذ للحق الثأر، وتقف بجانبه؟، لا وكلا!.

ان العامل الحقيقي في كل ما يجري على الساحة العالمية من الفساد الذي لا نهاية له ومن الجرائم التي لا آخر لها، والفوضى التي لا انقطاع لها، هو الشعور الزائد بالتفوق والكبرياء، وأصارحكم - أيها السادة - ليس هناك شعب يريد أن يعيد للانسانية هدوءها وقرارها بالقضاء على أسباب هذه الجرائم والفوضى، بل كأنّ كل شعب يقول: ما لي ولذلك... تأكدوا... انه لا يهم أحدا الاصلاح وانما يريد أن لا تكون هذه الجرائم الا تحت إشرافه هو... كأنَّ كل أمة تقول: ان هذا العالم بخير اذا عادت السيطرة عليه الينا، وتكون لنا الكلمة المسموعة دون الأمة الفلانية.

فمثلا، هذه الحرب العالمية الأولى، ماذا كان السبب فيها؟، شعرت ألمانيا شعورا قويا ملحا أن تكون لها تلك السيطرة على الأسواق العالمية والمتاجر الدولية، والوسائل والذخائر والبضائع في العالم، التي لا تزال بريطانيا تستأثر بها منذ أمد بعيد.

وتلك هي طبيعة أحزابنا السياسية كلها دون استثناء، وقد كرّرتُ القول في كثير من الحفلات والتجمعات التي ضمت أخلاط الناس في الهند أيضا، أكدت فيها أن هذه الأحزاب السياسية لا تهمها في شيء ازالة الفوضى والفساد - وان لم يصرح بذلك بلسان المقال - وانما يعنيها أن لا يجري الفساد وأن لا تدور الفوضى الا تحت تصرفها، وأمرها ونهيها، ولكم أن تجربوا ذلك... فلو حولتم اليها سلطتكم، لما وجدتم جديدا، وتقدما في القضية أو تأخرا، لأنها لا تختلف اختلافا مبدئيا منهجيا أو أخلاقيا.

ولو ألقيتم نظرة على المسرح العالمي، لرأيتم أن هاتي الأمم الأوروبية التي شنت بعضها حرب ابادة على البعض وأراقت الدماء بكل سخاء عدة مرات، لم تكن محاربة بعضها بعضا من أجل الاختلاف في المبادىء والأهداف أو بين المسيحية وغير المسيحية، أو بين العدل والظلم، أو من أجل إعداد خريطة أخرى جديدة للحياة الانسانية، لا، بل لمجرد أن ينضمَّ الانسان الى المعسكر الفلاني وأن تجتمع الدنيا تحت الراية الفلانية.

ومعذرة اليكم ـ أيها السادة ـ ان أحزابنا السياسية في الدول الشرقية لدينا تفكر نفس هذا التفكير، وتنحو نفس المنحى، فهي لا تتفجع على أن المواهب الانسانية تضيع، وأن الشباب يقع فريسة الشذوذ والانحراف والفساد الخلقي، وأن النظام التعليمي المعاصر خاطىء أو عقيم فيحتاج الى التغيير والتعديل... كل ذلك لا يهم أحدا، وانما الهمة مصروفة في الحصول على الملك والسلطان...

المشكلات التي تواجه المسلمين

أيها السادة! قضية مسلمي باكستان لا تنحصر في أنهم يحملون لواء الوحدة عبر باكستان فحسب، بل قضيتهم أعمق وأشمل من ذلك، فهم يتقلدون مسئولية تمثيل هذه الوحدة في خريطة العالم السياسية، ويتبنون تحقيقها وتجسيدها (Demonstration) والدعوة اليها وجمع الناس تحت رايتها... ومن هناك فلئن تراجعوا عنها وخذلوها، أو حدث في هذه البلاد التصارع على أساس اللغة أو الثقافة والحضارة أو ظهرت فتنة إحياء الحضارة المحلية القديمة، فينهض هناك أناس يتحمسون لاحياء الحضارة الهندوكية العريقة فيما قبل الاسلام... فالويل لهذه البلاد، ولا يستطيع أحد أن ينقذها من مخالب الدمار الا الله العلي القدير، وذلك لأن ما يأخذ بحجز هذه البلاد، ويربط بين العناصر المتباينة التي تشكلها، هو هذه الوحدة

الايمانية والوحدة العقيدية، والوحدة الاسلامية، فان رحتم تقيمون هذه الوحدات الجديدة المصطنعة، وجعلتم تنصبون هذه الأصنام التي نحتتها الأيدي البشرية والتي ثار عليها شاعر الاسلام الدكتور محمد اقبال ونعى عليها في شعره البليغ قائلا: «حطموا أصنام الألوان والعناصر والأجناس، وانصهروا في بوتقة الاسلام، حتى لا يبقى هناك «توراني» أو «ايراني» أو «أفغاني»»، فان هذه الأصنام من اللون والجنس والعنصر والثقافة والحضارة و... و...، سوف تفعل فعلها، وتعطي تأثيرها الأسود الذي يؤدي بهذه البلاد الى ما تقشعر منه الجلود، وتشيب لهوله الولدان، فقد ذاقت على أيدي هذه الأصنام بلاد من أرض الله ألوانا من الشقاء... هذه تركيا انتبه فيها الشعور باحياء «حضارة آسيا الوسطى» وتولى كبر ذلك «ضياء كوك ألب» وكان بطل هذه المسرحية «كمال أتاتورك»، وكذلك هَبَّ في ايران من حين لآخر هذا الفكر الأسود، وهتف أشواب من الناس باعادة «الحضارة الايرانية قبل الاسلام»... فحذار ـ أيها السادة ـ أن يستيقظ هذا الشعور في بلادكم في قلوب أناس، وينادوا هذا النداء الجاهلي لأنه نذر خطر لا نهاية له...

وتأكدوا أنه ليس هناك شيء يمكن أن يكون ضمانا على الأمان الا الوحدة الايمانية والوحدة الاسلامية التي هي صمام الأمن والسلام في الواقع، واذا قامت هناك وحدة ما سوى

هذه الوحدة فسوف تشتت شمل هذه البلاد، وتمزق هذا المجتمع الهادىء تمزيقا، وتضرب القوى بعضها ببعض، وتنفخ في العصبيات الجاهلية - تلك التي ضرب الاسلام على جذورها - روحا جديدة، فتنفض عن نفسها الغبار، وتهتز وترتص.

ولا أعلم أن النبي ﷺ قد شدد في الكلام، في قضية من القضايا أو في مناسبة من المناسبات، ماشدد فيما يتصل بالحمية الجاهلية، لأنه ﷺ كان يدرك - بفراسته النبوية وبادراكه للحقائق، واطلاعه على تاريخ الأمم والديانات: بجانب كونه منزل الوحي والالهام الرباني أنها أضرّ الفتن ورأس الفساد، قال عليه الصلاة والسلام:

« من تعزّى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا »[1].

يعني اذا نادى أحد بنداء الجاهلية، واستعداها عليكم، وقال: يا لهذه القبيلة، ولتلك الأمة، أو يا لهذه اللغة والثقافة، أو نال من أمة وشعب على أساس العنصرية والجنسية والنسب، أو على اساس عصبية من أمثال هذه العصبيات، فتناولوه بألسع الكلام وألدغه، ولا تلتجئوا الى الكناية والاشارة في التشديد والتشنيع.

١- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٥ ص ١٢٦ .

وتعلمون ـ بـدوركم أيها السـادة ـ أن هـذه العصبيـة تستطيع أن تبيد في آن واحد، الثروة العملية والأدبية والثقافية والحضارية الغنية التي تكونت في آلاف الأعوام والسنين، وأن تجعل المحاولات الاصلاحية المخلصة التي قام بها عباد الله المؤمنون الصالحون بعد تضحيات جسام هباءً منثورا، ورماداً تذروه الرياح في مكان سحيق، انها أعمى العمى، انها لا تبصر ولا تعي ولا تعقل، ولا تراعي في أحد إلاً ولا ذمة.

اني أريد أن أحذركم، وأن أبلغ هذا التحذير الى أقصى ما يمكن أن أبلغ اليه: إن أخوف ما أخاف على هذه البلاد هو العصبية اللغوية أو العصبية الحضارية، والدعوة الى احيـاء الحضارات القديمة، وأريد أن أطلق هذا الحديث، لأن ذلك لايخص بلدا دون بلد، انه خطر مدلهم على كل بلد يمنى بهذه المصيبة، خطر على مصر الحبيبة ـ مثلا ـ اذا دعت الى الحضارة الفرعونية، كما حدث قبل أعوام، وخطر على ايران الشقيقة، اذا تعزت بـ «سائرس» واعتبرته «البطل النموذجي».

وتفاديا من ذلك تشتد الحاجة الى احكام هذه الوحدة الكريمة، الوحدة الاسلامية، لأنها هي وحدها رسول الأمن والسلام، وقادرة على البناء والاصلاح، وهي وحدها التي تجمع ولا تفرق، تؤاخي ولا تعادي، ترحم ولا تقسو، تبني ولا تهدم، وقد امتن الله علينا بهذه النعمة الجليلة:

﴿واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء، فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته اخوانا﴾ [1].

يعني اذكروا كيف كان بعضكم حربا على بعض، يلغ كل منكم في دم أخيه، فألف بين قلوبكم، وقامت بفضله بينكم أخوة قوية منقطعة النظير تركت العالم البشري يقف منها موقف المدهوش المتحير ويقضي من عجبه حينما يرى في كتب السيرة مظاهر هذه الأخوة العجيبة... هذا أبو عزيز أخو مصعب بن عمير رضي الله عنه، يشد بالوثاق فيمر به مصعب، فيشير على الموثق بالاحكام، لأنه ثري يمكن أن يؤدي في فديته مبلغا خطيرا، فيقول أبو عزيز - حينما يرى من أخيه الشقيق موقفا لم يكن يتوقعه - كنت أرجو أنك ترق لحالي، وتتوسط في تخليصي، وتشفع لي بخير، فيتبرأ منه مصعب، ويقول لست أخي، وانما الذي يوثقك هو أخي، الى هذا المبلغ قد بلغت هذه الأخوة، يا سادة! والى هذا الحد وحدتهم هذه الوحدة، وحدة العقيدة والغاية.

أما الوحدة اللغوية، فلا تغني غناء، وانكم تعرفون علاقة ما بين الناطقين باللغة الواحدة بعضهم ببعض، هل استطاعت أن توحدهم، وأن تجردهم من الأنانية، والأهواء النفسية، والأغراض الذاتية الرخيصة، وأن تجعلهم اخوانا

١- سورة آل عمران - ١٠٣.

متحابين متجاوبين متعاطفين حينما يجدون فرصة من الوقوف في وجه الناطقين بغير لغتهم، وأن توقظ فيهم الشعور الانساني، فيكرم بعضهم بعضا ويحترمون دماء اخوانهم وأعراضهم وأموالهم، كاحترامهم لدمائهم وأموالهم وأعراضهم.

حقا، ان الوحدة اللغوية ليست بشيء، ما لم تكن هناك وحدة قلبية، وتجاوب عاطفي، وانسجام روحي، فقد رأيتم أن اللغة وحدها، تعجز عن أن توحد، بل انها بالعكس من ذلك تقوم بدور سلبي، انها تؤلب الانسان على الحرب ضد الانسان باسم اللغة.

أنتم تتشرفون بمنصب الدعوة الى الوحدة الاسلامية

يا سادة! قبل أن أنهي حديثي، أريد أن أصرح بأن الله لم يكرمكم بنعمة هذه الوحدة ـ الوحدة الاسلامية فحسب، بل أسند اليكم مسئولية الدعوة اليها، فيتحتم عليكم أن تمثلوها أمام العالم، حتى يرى الناس بأم أعينهم آثارها وثمارها الحلوة أرجوكم أن تكونوا على مستوى هذه المسئولية العظيمة وعلى مستوى هذا الشرف الكبير، حتى اذا أراد هذا العالم الذي يضطرب من حولكم أن يرى نموذج الوحدة الاسلامية، يمكنه ان يجد في باكستان متمناه وطلبته، فلا تسمحن لوحدة جاهلية في داخل حدودها بالنشوء والارتقاء، والترعرع والنماء، لأنها تجعل قلوبكم شتى، وتوزعكم في كتل وجماعات، وتخلق لكم مشكلات معقدة يعجز عن حلها العقلاء وقادة الفكر ورجال السياسة،

مهما بلغوا من عمق الفكر ورجاحة العقل .

انه كفر بنعمة الله، ونكران لفضله، أن تزعزعوا تلك الركيزة التي عليها تأسس هذا المجتمع، وأن تضيعوا ذلك الهدف الأسمى الذي من أجل تحقيقه أقيمت هذه الدولة... لا بد أن تلاحظوا ما هي الدوافع التي جذبت أبناء الاسلام الى هذه المنطقة، الغرض الذي من أجله تجمعوا، والنور الذي عليه تساقطوا، هل اللغة هي التي جمعتهم هنا، أو الحضارة هي التي جاءت بهم؟ لا وكلا! وربما يمكن أن يختلف سكان مقاطعة في هذا البلد عن سكان مقاطعة أخرى في المدنية والاجتماع اختلاف الأمتين، وهذا الاختلاف طبيعي، ولو ألقيتم نظرة واحدة على هذا الحفل الكريم لرأيتم هذا الاختلاف فعلا، فما هي الجامعة التي تجمعهم على هذا الاختلاف وما هي الرابطة التي تربط بعضهم ببعض رغم هذا الفرق الكبير ؟ .

انما هي الوحدة الايمانية بكل تأكيد، وتلك هي التي تستطيع أن تظل توحدكم، وتقويكم، وتشد عضدكم، في المستقبل، وتستطيع أن تبقي على عزكم وشرفكم ومكانتكم، وتعطيكم ضمان السلام الدائم، فاحتضنوها، وقدروها حق تقديرها، وتقلدوا مسئولية الدعوة اليها، وسوف يكون ذلك منكم خدمة قيمة لهذا العالم الجريح المثخن بالجروح من التمزق والتشتت والانشطارية، بجانب كونها خدمة دينية مشرفة .

وأخيراً فأشكركم جميعا على حسن اصغائكم لحديثي، وعلى ما منحتموني من الحب والتقدير، فجزاكم الله جميعا، وشكر سعيكم، وضاعف أجركم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المرحلة الانتقالية للعالم الإسلامي

(هذه المحاضرة ألقاها المحاضر في حفلة أقامها مجلس تنسيق القانون الاسلامي الباكستاني في ١٨/ يوليو ١٩٧٨م في فندق اسلام آباد تكريما وترحيبا به، رأسها قاضي قضاة المحكمة العالية الباكستانية صاحب السعادة أنوار الحق، وحضرها قضاة المحكمة، والوزراء الاتحاديون، وأعضاء مجلس تنسيق القانون الاسلامي، والعلماء والمثقفون، وألقى صاحب السعادة القاضي محمد أفضل جيمه رئيس مجلس تنسيق القانون الاسلامي كلمته الافتتاحية كما ألقى صاحب السعادة قاضي القضاة أنوار الحق كلمة الرئاسة).

قال بعد ما تلا الخطبة المسنونة:

سيادة رئيس الحفل والسادة المستمعين والحاضرين!

ان من دواعي الشكر الجزيل والسرور الغامر أن يجتمع في هذا الحفل الكريم، للاستماع الى حديثي، أولئك السادة الكرام الذين كانوا يستحقون أن أحضر اليهم انا بنفسي

فرداً فرداً، وأضع أمامهم حصيلة دراستي ونتيجة تفكيري، وأبوح اليهم بما يموج في قلبي من أشجان وأحزان مريرة.. لكنهم من حسن حظي تجمعوا بأنفسهم في موطن واحد، وتسنى لي أن أتحدث اليهم جميعاً في وقت واحد.

لكن المناسبة مناسبة السرور والمسئولية معا، ولا أكاد أبت: هل أستجيب لدواعي الفرح والاغتباط، أم استشعر المسئولية فأجد وأتفكر، على كل، فاني أمام هذا الموقف المزيج والشعور المزدوج من الفرح والشعور بالمسئولية

لحظة من الغفلة قد تُخلّف الركب بمسافة قرون

العالم الاسلامي اليوم يمر - أيها السادة - بمرحلة حرجة جداً، بمرحلة انتقالية قاسية دقيقة فاذا أضاعت قيادات الدول الاسلامية وعقولها المفكرة، ورؤوسها المدبرة، لحظة واحدة في قضية شخصية، أو وقتية، فان ركب الحياة السباق سوف لا يربع عليهم، ولا يرفق بهم لأن السيل لا يتوقف الا بسيل مثله، وأنه لا يبالي بسفينة، غرقت أم وصلت الى شط النجاة، وساحل المراد.

رسالة عزيزة من تربة الاندلس

قد ترك الآن صاحب السعادة قاضي القضاة «أفضل جيمه» المحترم هزة في قلبي حينما ذكر اسبانيا (الأندلس المنكوبة المرحومة) وأثار ذكريات مريرة في صدري، قد أتيح لي - من حسن حظي أو سوء جدي - أن أزور هذه

التربة الحبيبة وأقرأ تاريخها، كما وفقت أن أزور معظم العالم الاسلامي والأقطار الاسلامية، لكني حينما وطأت قدماي أرض الأندلس، شعرت كأن أجواءها تلاصقني، وأرواحها الطاهرة ونفوسها الزكية الوديعة في التراب تعانقني وتصافحني، وأن كل ذرة من ذراتها تحملني رسالة، وتقول لي: حذار أن تذوق دولة من الدول الاسلامية هذه المأساة التي ذقناها، انها أمانة أضعها في عنقك، ومسئولية أحملها كاهلك:

أن تبلغ هذه الرسالة الى أقصى ما تستطيع أن تبلغها اليه، وأن تنادي بأن المسلمين لا يستطيعون أن يذوقوا هذه المرارة مرة ثانية، وأن يقع على ساحة قطر اسلامي ما وقع في اسبانيا، أيم الله اني لأشعر بمضض الألم حينما أؤدي هذه الكلمات، لكني أرى من مسئوليتي أن أرددها في كل قطر اسلامي.

العالم الاسلامي يمر بمرحلة انتقالية

العالم الاسلامي الآن يمر بمرحلة انتقالية، يفض الهيكل القديم، ويصاغ له هيكل جديد، وفي مثل هذا الوقت الحرج قد تتبدل مصائر الأمم وتبتدىء مرحلة جديدة من نوعها في حياتها، ويكتب لها مصير آخر، ويقدر لها قدر جديد، ان هذه المرحلة كما تتطلب قوة الايمان والعقيدة كذلك تتطلب دراسة عميقة دقيقة، وتفكيراً جديا هادئا متعمقا، وتضحية

وايثارا، ان هذه المرحلة لم تمكن مواجهتها بدون استيفاء هذه العناصر في الماضي، ولا تمكن في الحال ولن تمكن في المستقبل انها محنة العقيدة والايمان، ومحنة الذكاء في وقت واحد لأن العملية هي عملية بناء مدنية جديدة وتشكيل مجتمع جديد، وتطبيقه مع التعاليم الاسلامية وتطهيره من العناصر المضادة لها.

قد قلت لكم بالأمس [1]: ان الاسلام اليوم - بصفته عقيدة - موجودة ومعمول به، لكنه جرد من مدنيته، وكانت هذه مؤامرة خطيرة نسجها الغرب، انها رأت أن المسلمين ليس بالامكان تجريدهم من العقيدة، وأن شعورهم أرق فيما يتصل بهذا الجانب، لأنهم قد مروا في هذا الصدد بتجارب مريرة جداً، واكتووا بنارها منذ الحروب الصليبية الى سحق الكيان الاسلامي وتصفيته في أسبانيا، فلجأت الى استراتيجية (Strategy) أخرى، وقررت أن تجردهم من مدنيتهم، وتسلخهم من نظامهم الاجتماعي، وتحملهم على قبول مدنية أخرى أجنبية، وأعتقد أن أوربا قد كسبت في ذلك نجاحا باهرا.

والحمد لله لم يقع تحريف فيما يتصل بالعقائد الاسلامية، كما وقع في المسيحية حيث حادت عن خطّها الصحيح تماما، وصارت تعدو على الخط الذي رسمه «سينت بال» على خط

---

[1] في حفل اقيم في فندق باسلام آباد لترحيب بصاحب الحديث

التثليث، وإبنيّة المسيح، والمدنية الرومية، ثم تجددت أسباب كثيرة ضاعفت سيرها على ذلك الخط المنحرف، ويا ليت المسيحية المعاصرة كان عهدها بالشعب الشرقي المتباطىء كالسلحفاة، والركب الشرقي النائم المستريح، لكن كان عهدها بالغرب التي كانت تتدفق بالحياة والنشاط، وروح الرقي والتقدم والانطلاق، تجري في عروقها دماء فائرة هادرة فائضة تريد أن تشق طريقها الى الأمام فتجري في عروق أبناء الشرق والجنوب والشمال وأرجاء المعمورة كلها، فتضاعفت سرعة هذا الانحراف مع تضاعف سرعة الرقي في جميع جوانب الحياة، لأن الامة التي تبنت هذه المسيحية المنحرفة وحملت لواءها ما كانت لترضى بالبطء، اذ أنها صارت تأخذ «بمبدأ التنازع للبقاء» بضغط من أسباب كانت وليـدة المكان والزمان، وأصبحت تثبت جدارتها في معركة الحياة الساخنة . .

ان الاسلام لم يمن بمثل هذا الانحراف والتحريف، وسوف لن يقع هذا الانحراف والتحريف فيما يتعلق بمبادئه وعقائده وأوليائه، لأن الله ضمن صيانته من ذلك قائلاً: ﴿انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾[1] اما ما يتصل بالمدنية والحياة والمجتمع فمن الواضح، أن العقيدة والثقافة أو الأمة التي تحمل هذه العقيدة أو هذه الثقافة لا تعيش في

---

(١) سورة الحجر ـ ٩

الجو، بل انها تحتاج - لكي تعيش وتؤدي دورها في الحياة - الى مناخ ، الى حرية ، الى وسائل، والى تسهيلات لتكوين مجتمعها.. لم يقع انحراف في العقائد والأصول، لكن الأخلاق والسلوك وأسلوب الحياة التي تكون وليدة هذه العقائد تحتاج في تمثلها في الواقع العملي الى مجتمع حر، الى بيئة منفتحة، الى قطعة من الأرض تتنفس فيها بحرية، ودون حد وقيد، وتتجلى بنواحيها واجزائها ، وأصولها وفروعها ونجحت أوربا فيما استهدفته من تجريد المسلمين من المدينة الاسلامية العريقة وفرضت عليهم مدنيتها ، وزينتها في أعينهم.

الاسلام يحتاج الى السلطة

يا سادة! اني أنتمي الى أسرة والى مدرسة فكر آثرت التسبيح والتكبير على صهوات الخيل على المناجاة قابعة في زاوية البيت الآمنة الهادئة، وجمعت بين السيف والمصحف، أعني بذلك مدرسة الامام السيد احمد بن عرفان الشهيد البريلوى وجماعته وأتباعه من أصحاب العزيمة والطموح، والشجاعة والشهامة، والتفاني والمغامرة، والعقل والعاطفة، الذين قاموا بمحاولات الاصلاح والتجديد الموسعة وجاهدوا جهداً كبيراً في سبيل احياء الخلافة الاسلامية الراشدة، ولا أعرف في القرون الأخيرة في أي جزء من اجزاء العالم الاسلامي نظيراً لهذه الجماعة، في شمولها

وجامعيتها، وعزيمتها وشهامتها، واخلاصها وتضحيتها، أنتمي أيها السادة، الى هذه الجماعة المؤمنة الواعية الجامعة، وأعتقد أن الاسلام يحتاج الى السلطة والمسلمون يحتاجون الى مجتمع حُرّ آمن، ولا يزال قول الرب تبارك وتعالى المعجز صادقاً وسيظل الى يوم القيامة كما كان صادقا وقت نزوله:

﴿الذين ان مكناهم هم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾[1].

ومما يدعو الى التفكير أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كليهما يستخدمان في صدد «المعروف» و«المنكر» كلمتي «الأمر» و«النهي»، ولم يستخدما كلمات «الالتماس» و«الرجاء» و«الطلب» و«السؤال» الى القائمة الطويلة من الكلمات التي تنم عن بعض الخضوع والتواضع وصغر الشأن والمكان، واللغة العربية هي ما هي في غنائها وسخائها، ولكن الكتاب والسنة يقتصران في التعبير عن القيام بهذين العملين الجليلين: «المعروف» و«المنكر» على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر».

والأمر والنهي يتطلبان شيئاً من القوة والغلبة يمكن الرجل من أن يقول - في قوة وجرأة، وعن ثقة واعتماد -:

١- سورة الحج - ٤١.

هذا خطأ وهذا صحيح، ومعنى ذلك أن الاسلام يحتاج الى القوة والى السلطة، حتى لا يضطر أبناؤه دائماً أن يقولوا للعالم الذي يعيش من حولهم في ظلام الجاهلية: «ينبغي العمل بكذا»، و «الأخذ بكذا شيء مستحسن ومعقول» أو «ندعوك الى كذا» و «نرغبك في كذا» و «نبشرك بكذا» نعم لقد أجاز الاسلام كل هذه الطرق والأساليب، لكن القرآن لا يستخدم لذلك الا كلمة «الأمر» وكلمة «النهي»... ثم ان اصلاح النوع البشري الكامل لا يمكن بدون هذه القوة والغلبة اللتين رتب عليهما القرآن «اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

لا بد من الاهتمام بالغصن الذي يقوم عليه العش:

واني وان أنتمي الى هذه المدرسة الفكرية وهذه الحركة الدينية العملاقة التي أشرت اليها، لكن لا بد أن اقرر أنه يجب الاهتمام أولا بالغصن الذي نريد أن نصنع عشّنا عليه: فالامر يتوقف على ذلك الغصن، فاذا كان الغصن قوياً متيناً، وكان أخضر أنضر، محكم الاتصال بالساق، فهنالك تأتي مرحلة التفكير في نوعية العُشّ وطرازه ومنهجه، ولكن الامر الذي يجب أن يسبق هذه المرحلة هو ان نرى: هل الغصن موجود أم لا، وما هي نسبته من القوة والمتانة والحياة وقدرة الاحتمال.

والغصن الذي يقام عليه العش هو المجتمع، ذلك المجتمع الذي يتكون من الحياة العامة في البلد، ومن الغادين والرائحين في المدن والقرى، والبائعين والمشترين في الاسواق، والعاملين في المصانع، والمعلمين والمتعلمين في معاهد التعليم والتربية، اولئك الذين تكون الحياة عبارة عنهم، وعليهم يتوقف بهاء المدن، والذين هم مادة العمران، فلا بد أن نستعرض اولا مشاعرهم وأحاسيسهم، ومقاييس الحسن والقبح لديهم، وموازين الخير والشر عندهم، لكي ندرك جيداً مدى قدرة الغصن لاحتمال ثقل العش.

أيها السادة! مهما استخدمتم الذكاء والبراعة في صناعة العش وفي احكامه واتقانه واحسانه، ولكن جهودكم تذهب ضياعاً، اذا كان الغصن - الذي يقوم عليه العش - واهياً، يقول بلسان حاله: اني لن اتحمل عبء العش، ومن هنا يجب اولا الاستعراض الدقيق، حتى نطلع جيداً على وضع المجتمع اخلاقياً وعقيدياً والى اي حد يأخذ بضروريات الحياة المبدئية، واصولها الاساسية، وبشروط الانسانية الاولية.

فلئن كان هناك مجتمع قد بلغ من عبادة النفس والهوى والولوع بالمعاصي والجرائم، الى انه يختنق بالدعوة الى الصلاح والخير، والى الاخلاق والمعاني الانسانية، والاقلاع عن المعاصي والفسق، كما يختنق السمك لو اخرج من الماء ووضع على الارض... واني اقضي من عجبي كلما اقرأ الآية

الكريمة من القرآن ﴿أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون﴾[1] ، وأقف مدهوشاً أمام صدقها واعجازها وروعة بيانها ، وبلاغة تعبيرها عن نفسية المجتمع الفاسد الذي صار وكأنه يلفظ أنفاسه الاخيرة من أجل الدعوة الى الخير ، حتى صاح صيحته ، واعلن صراحة أنه لا يستطيع التنفس في هذا التيار الذي تدفق اخيراً من الطهر والصفاء والعفة ، لانه تعود أن يكون غارقاً في حمأة الذنوب والآثام الى الاذقان والآذان .

لئن كان المجتمع وصل الى هذه النقطة النهائية من الفساد والتفسخ والتعفن ، فلا يرجى فيه نجاح نظام او تنفيذ خطة اتخذت بمعزل عن مراعاة الوضع الذي يعيشه ، والحياة التي يحياها .

يا سادة! ان المجتمع هو الغصن الكريم الذي يقوم عليه عش نظام صالح فاذا كنتم تريدون اقامة هذا العش ، فلا بد أن يكون ذلك الغصن موضع عنايتكم ورعايتكم وذلك لانه اذا كان الغصن في خطر او وضع مخوف تتوجه اليه الضربات من الجوانب الاربعة ، ويتقدم اليه آلاف من الاعداء ، بينما الحارس عليه واحد ، فان هذا الواحد - مهما كان مخلصاً ذكياً ذا اهلية ودهاء ، وذا وسائل واسباب - لن ينجح في محاولته ، أفهل يمكن - يا ترى - أن يتم بناء

١- سورة الأعراف - ٧٣ .

يقوم ببنائه أناس ويهجم عليه أناس في عدد أكثر من عدد البنائيين - بمعاولهم -، حقاً ان مثل هذا البناء المسكين لا يمكن أن يصل الى درجة التمام والاكتمال، فضلا أن يبقى على حياته ولو بعض حين.

المجتمع كتربة

ان المجتمع كتربة، فاذا كانت هذه التربة كريمة، ثابتة ذات قرار مكين، ولا تكون «كثيباً مهيلا» - في التعبير القرآني البليغ - لا قرار له ولا ثبات، تهوي بذراته الريح الى حيث تشاء، ولا رجاء في بقائه في مكانه بعد حين، لانه رهن اشارة الرياح، وطوع أمرها... اذا كانت التربة على صفاتها الاولى الكريمة تستطيع ان تأتي بحاصل كبير بجهد ضئيل، ووقت قليل، وأن تنبت عليها الاشجار، وتخضر عليها الزروع، وتكثر فيها الفواكه والاثمار، كما يمكن ان تقام عليها قصور شامخة، وأبنية ناطحات السحاب، ومصانع تعانق قبابها عنان السماء.

اما اذا كان المجتمع ﴿كثيباً مهيلا﴾ ورمالا زائلة، فانه يمكن أن يستغله ويسكره ويخدره كل رجل داهية، ويميل به الى حيث يشاء، ويجعله يهرع وراءه ويطبق آراءه، ويجسد افكاره، وينفذ اوامره، ويتجنب عن نواهيه... ولا يحمل قوة على مقاومة خطر ولا يتصف بتماسك عقلي ومعنوي، بل يكون على استعداد للانحراف كغثاء السيل مع كل تيار

جارف من الدعوات المضللة، أو القوى المفسدة او النظم الجائرة والفلسفات المنحرفة، فيتناغم معها ويتفاعل، وينحاز اليها، ويقف بجانبها، ويذهب - في ثانية او اقل - كل محاولات الاصلاح والبناء هباء منثوراً، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً... اذا كان المجتمع قد وصل الى هذا الحضيض، فلا ثقة به، ولا رجاء فيه، وعلى المجتمع السلام.

والواقع انه لا يوجد اليوم في اي مكان مجتمع اسلامي كامل، نثق به ونضع فيه رجاءنا، ونعلق عليه آمالنا. وانه لحديث امس - ومعذرة الى من لا يتفق مع رأيي - رأينا جمال عبد الناصر في مصر كيف ركب على اعناق الشعب المصري وفعل به الافاعيل، وكان المجتمع المصري هادئاً، يبدو كأنه لم يحدث شيء، وليس هناك احد يعارض جمال عبد الناصر، بل كأن الشعب كله كان مستعداً في كل وقت للتجاوب مع صوته، والتصفيق له، والجري وراء سيادته حيث تتجه بالنعرات والهتافات مسروراً فخوراً، حتى خلع عليه بعض الناس لباس القداسة والعصمة والبراءة، وأحلوه محلا مرموقاً من القبولية والعظمة التي لا يحظى بها الا الانبياء والرسل عليهم السلام، ولكن جاء الوقت الذي تجلت فيه الحقيقة، وانكشف فيه الغبار عن الحمار[1]، ولم يعد أحد يذكره

١- يشير المحاضر إلى البيت العربي القديم:

وسوف تَرى إذا انكشف الغُبارُ

أفرسٌ تحت رِجلك أم حمارُ

بالخير ، أو يتلفظ باسمه بانشراح القلب .

وكذلك جميع المجتمعات التي تعيش حولنا ، مهما نهض فيها رجل لبق، فانها ترتمي في حضنه، وتخضع لارادته، وتسبح بحمده، وتقدس لمجده... انه لوضع مخوف، ونذير خطر كبير .

يجب ان لا يكون هناك تأجيل في تطبيق الشريعة الاسلامية

وليس معنى ذلك انني اشير بتأجيل تطبيق الشريعة الاسلامية، كلا! انني لن اسمح لاحد بهذا الخطأ في الفهم، لانني لا اري لهذه المحاولات السعيدة المباركة ان تتوقف للحظة واحدة، او تؤجل لدقيقة واحدة، لكني اريد أن ألفت أنظاركم الى الواقع، وهو أن نجاح هذه المحاولات يتوقف على هذا المجتمع... فلو حبذه المجتمع، وركزنا نحن، ودعاتنا ، ومؤلفونا ، وكتابنا ، وصحافتنا ، وتلفازنا ، واذاعتنا ، وجميع وسائل الاعلام والابلاغ على ذلك، وتبنينا جميعاً هذه المهمة، وقررنا أن نغير موازين الحسن والقبح المجحفة، وأن نغير مشاعرنا وأحاسيسنا ، وأن نعمم روح التقوى والصلاح والاحتساب، وحياة الجد والصبر ، والصرامة والتحمل، وروح الصمود والمقاومة للاغراءات المالية أو الجنسية او الاخلاقية... لامكن أن يحمل المجتمع اثقل عبء، واضخم مسئولية، لانه عندئذ سيستطيع ان

ينهض بعبء الخلافة الاسلامية ايضاً، واني على يقين كامل بأنه لو تم التنسيق والتعاون بين هذه القوى والادوات المؤثرة الفعالة، واتجهت كلها اتجاهاً واحداً نحو اصلاح المجتمع، ليس ببعيد أن يتحقق حلم «الخلافة الاسلامية» لكن المؤسف المحزن أن وسائل الاعلام يديرها اليوم اولئك الذين وصفهم القرآن الكريم بما يلي:

﴿ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1].

ان الآية معجزة حقاً، انها نزلت من أجل قصة خاصة حدثت في مجتمع المدينة المنورة المحدود، وصار الناس يتحدثون عنها في محافلهم ومجالسهم، فحذرتهم الآية هذا التحذير الصارخ، واوصتهم بالانتهاء عن هذا العمل الشنيع.

ومهما كانت القصة عظيمة، ومهما كان الذين يتصلون بها، فان الآية الكريمة ـ بموجب عموم بيانها، وشمول معناها وتعبيرها ـ تستوعب تلك القصة، والذين كانوا يتذاكرونها، وتستوعب كذلك ـ متخطية الحدود الزمانية والمكانية والمسافات الجغرافية ـ ما يقع في القرن العشرين، في عصر الصحافة، وعصر التلفاز، وعصر الراديو، وعصر

١ـ سورة النور ـ ١٩.

القصص والروايات، وعصر السينما والتمثيل والمسرحيات، وعصر الكتابات والفلسفات، ويمكنك اليوم أن ترى هذا الواقع في أجلى مظاهره وأبشع اشكاله، وأشنع صوره التي لم يكن من الممكن رؤيتها من ذي قبل، ان الذين عاصروا نزول الآية الكريمة في المدينة المنورة ـ على منورها ألف ألف سلام وتحية ـ كانوا قد آمنوا بالغيب، وطبقوا الآية على الحادث الذي عهدوه، غير أن الدور الفعال الذي يمثله العالم المعاصر المجنون في اشاعة الفاحشة، وفي تطبيق «أن تشيع الفاحشة» لم يكن بالامكان تقديره من ذي قبل .

السلحفاة نائمة على بطنها في السير
والارنب دؤبة في الجري،على ما لها من خفة وسرعة

اخواني! قد سمعت في صباي ـ وربما تسامعتم انتم كذلك ـ أنه وقعت المسابقة بين أرنب وسلحفاة، فأحرزت السلحفاة قصب السبق، لانها على بطئها كانت دؤبة مجتهدة، لا تعرف الاستجمام والاستراحة، أما الارنب فاطمأنت الى خفتها وسرعتها، فنامت لتأخذ نصيبها من الراحة، وظنت ان النجاح في المسابقة طوع أمرها، لانها هي ما هي في سرعة سيرها، فكانت عاقبة أمرها خسرا .

ولكن القضية اليوم انعكست، وأصبحت قصة نجاح السلحفاة وفشل الارنب مقابلها أمانة التاريخ، ووديعة كتب القصص والحكايات القديمة، فنرى اليوم مسابقة بين

السلحفاة والارنب، ونرى الارنب دؤبة في سيرها، مستمرة في قفزاتها، مع ما تتمتع به من سرعة مثالية في الجري، والسلحفاة غارقة في نومة الضحى، مع بطئها المعروف في المشي... وذلك هو مثلنا ومثل القوى الهدامة العالمية، فالجهود المبذولة لبناء العالم الاسلامي كسلحفاة نائمة مع بطئها... والقوى الهدامة نشيطة باستمرار دائب في تنفيذ خطتها، مع خفة أيديها وسرعة عملها... وكلما قارنت بين قوى البناء وقوى الهدم رأيت قصة السلحفاة النائمة والارنب الدؤبة في العمل.

نرى أن القوى الهدامة الشيطانية تبث الفوضى والشذوذ الخلقي في مجتمعنا ولديها من الوسائل والامكانيات ما تستطيع أن تجعل الليل نهارا، والنهار ليلاً، والنور ظلمة... والظلمة نوراً، أما المحاولات البنائية، والمؤسسات البنائية فنراها مجردة من الوسائل، وعزلى من قوة التنفيذ والعمل، وأسباب الاستقطاب والجذب والاستهواء (CHARM).

ان مشكلة المجتمع الاسلامي أصبحت اليوم خطرة جداً، تتطلب عناية جدية، فقد صار الناس يعتقدون ـ في بساطة، وعن جهل ـ أن قضية الفرد ليست بذات أهمية، وإنما المهم هو قضية المجموعة، والمجتمع... ان هذا العصر، هو عصر تقديس الجماعة، وركزت فلسفة الاجتماع والعمران اليوم كل عنايتها على المجموع فاشادت بفضله، ونوهت بذكره، وعمقت في القلوب والاذهان أهميته، حتى

اذهلت الناس قضية الفرد وأهميتها، وعادوا يعتقدون ان الافراد مهما بلغوا على الانفراد من الفساد والنقصان، ولكن المجموع الذي يتكون منهم يكون صالحاً، ومعنى ذلك ان الالواح على انفرادها مهما كانت متأكلة منخورة واهية، لكن السفينة المصنوعة منها، تتحول فجأة الى أسطول، ويغيب عنها الفساد والضعف والوهن... ولكي نتبين الحقيقة جلية واضحة يمكن ان نأخذ مثلا من أن قُطّاع الطريق، قُطَّاع بالانفراد، فيهم خبثهم ومكرهم وشيطنتهم، أما اذا اتحدوا واتخذوا «اتحاد القِطاع» فانهم يتحولون فجأة حراساً أمناء، وخفراء أوفياء... ولكن لا أكاد أدري، ولا يقبل منطق أن يكون السارقون والقُطَّاع على صفتهم ما داموا على الانفراد، ولكنهم اذا ما تكثفوا، وكانوا مأة قاطع او سارق مثلا، فهم يتبدلون صلحاء، وحراساً... ولكن المؤسف جداً، ان العالم المتحضر قد آمن بهذا المنطق، وقد تكاتف الشرق والغرب، بمن فيهم الروس والامريكان والناس من كل مكان، فيهم الخبثاء الماكرون، والدهاة الظالمون، واولياء الشيطان الذين مطامعهم توسعية، وأغراضهم خبيثة، وحياتهم فاجرة واخلاقهم فاسقة، واتخذوا جميعاً منظمة اجتماعية تتحكم في مصير الامم والدول وتقضي لها او عليها.

السهم الفعال في كنانة الاسلام

أيها السادة! ان الله ـ بمجرد فضله ـ قد أتاح لنا اليوم

فرصة مباركة في هذه البلاد، حيث جعلنا نشعر بالحاجة الى تكوين جديد للمجتمع، وألقى في روعنا أن نطبّق الشريعة الاسلامية، وأن نجعلها صاحبة الحول والطول والسلطة العليا في هذه البلاد التي برزت الى حيز الوجود باسم الاسلام وحده، انه لمن فضل الله علينا، وانها لسعادة ساقها الله الينا، وليس من الصدفة، واني لا اؤمن بمنطق الصدفة، لانه لا يحدث شيء الاّ بأمر الله وتقديره، ولا تسقط ورقة الا باذنه، وأعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد راعى الانتماء الكريم الى الاسم العظيم الذي برزت هذه البلاد تحمل لافتته، الا وهو الاسلام، فأوصيكم - يا اخواننا في الاسلام - بأن لا تفوتكم هذه الفرصة الذهبية، وأن لا تضيع عليكم هذه النعمة الالهية.

ولتلاحظوا أن السهم من كنانة ما يمكن أن يتفاءل به الانسان ويتشاءم به ما لم يجرب، لكنه اذا أخرج من الكنانة وجرب، لا يبقى هناك غموض، ويتجلى الواقع وتتكلم الحقيقة، وتحكم التجربة حكماً نهائياً بالفشل او النجاح... ان لديكم اليوم سهماً أمضى سهام كنانة الاسلام، فانتم في موقف دقيق، وليكن ملحوظاً ان تطبيق الشريعة الاسلامية، ليس يعني تطبيق بعض حدوده وحدها، ان تطبيق الشريعة اوسع معنى من ذلك بكثير، فلا أستطيع أن أشهد لبلد من البلاد، واتنبأ له بالخير ما لن نجرب أحواله كلها، وما لم نطلع على اهدافه وغايته، لكن ما يمكن أن يقال: هو أن

هناك شيئاً في الدنيا، كان هناك أناس يتفاءلون به، ويرون أنه أمضى سهم وما أن خرج من الكنانة الا وتتفتح ابواب الخير والسعادة على مصراعيها، وما لم يخرج هذا السهم من كنانته، ولم يتأت رجاء في خروجه، كانت الالسن ساكتة، والاقلام ساكنة، وكانت لنا فرص العذر متوفرة، وكان لنا ان نتخلص قائلين: كيف يرجى خير، ويؤمل في سعادة، والشريعة الاسلامية غير مُطبَّقة بجميع أجزائها، والمجتمع كله فساد في فساد، وأمر الناس كله فوضى وشذوذ وشر... ولا يعود لنا عذر بعد ما يبرز هذا السهم من الكنانة وتتم تجربته التي لا تتكرر.

ولا بد أن أصارحكم - في ضوء دراسة التاريخ - أن مثل هذا السهم لا يعاد استخدامه ولا تتكرر تجربته، انه لا يعود الى الكنانة بعد ما ينفصل عن القوس... ومن ثم فذلك وقت حرج، وموقف حساس، تقفونه انتم ايها السادة اصارحكم - وأنا بين مرأى ومسمع من سعادة رئيس قضاة هذه البلاد وعدد وجيه من الوزراء الكبار والعلماء والمثقفين الكرام ورجالات العلم والفكر - بكل أدب واحترام، أنها لمرحلة دقيقة صعبة، لا في تاريخ باكستان وحدها، ولكن في التاريخ الاسلامي كله، انها مرحلة يحبس الانسان عندها الانفاس.

والتجارب قد تنجح وقد تخفق، والحياة البشرية كلها في

الواقع هي مجموعة تجارب مخفقة وناجحة، فقد يتعثر الانسان ثم يستقيم، وقد يزل ثم يتماسك، وقد يسقط ثم يقوم، وتلك هي قصة جميع الامم والملل على هذه الارض، قد تغور سفينتها ثم تطفو، وقد تغوص ثم تطيش، وهي سنة الله في الكون، ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير، انك على كل شيء قدير. تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب﴾[1]. وقال ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾[2].

لا يعزبن عن بالكم - وأنتم مقبلون على هذا العمل العملاق المبارك، عمل تنفيذ القوانين الاسلامية في هذا هذا المجتمع وهذه البلاد - أنه لا بد أن يكون لدى المجتمع استعداد لتلقيها بالقبول واحتماله، واساغته... لان الغذاء مهما كان طيباً لذيذاً سائغاً، لا يفيد المرء اذا كانت معدته فاسدة لا تقبله... ومن ثم يتحتم العمل على اصلاح المجتمع على اوسع نطاق، ولتركز عليه منابر المساجد، ومعاهد التعليم والتربية، وأعمدة الصحف، وصفحات المجلات والجرائد، والتلفاز والاذاعات، وليكن ذلك

١- سورة آل عمران - ٢٧ .

٢- سورة النور - ٤٤ .

موضع عناية خطبائنا السياسيين... واذا كانت اسواق الرشوة نافقة في كل مكان، واغراءات المال والمادة على قدم وساق، والقسوة والوحشية على شدتها وحدتها، وكان الاصدقاء والزملاء، واهل مدينة واحدة وقرية واحدة، بل وحارة واحدة، لا يعرفون الأُخوَّة والمساواة والعطف والحدب فيما بينهم، ولا يعرف موظفونا في المكاتب وعمالنا في المصالح والادارات ومختلف القطاعات روح التناصر والتعاون، فان ذلك شيء لا يبشر بالخير، ولا يبعث على الامل، لانه نذير خطر عظيم.

أسباب جلاء المسلمين عن اسبانيا

يعرف الدارس الخبير أن السبب الكبير في جلاء المسلمين عن اسبانيا، أنهم لم يعتنوا بنشر الاسلام في أرجائها، فلم يتقدموا الى الجانب الشمالي، بل ظلوا يتقهقرون الى الجانب الجنوبي، ولم يحتكوا بأهلها المسيحيين، وما تغلغلوا في قلب أوربا، ولم يقوموا فيها بتبشير الاسلام خير قيام، ولم يقوموا باصلاح ذلك المجتمع، وشغلوا عن هذه الوظيفة الأولى بتوسيع تراثهم الحضاري وتصعيده، واسترعت الفنون الجميلة، والشعر والموسيقى جل عنايتهم، ولكن مصيبتهم العظمى كانت في اضطرابهم الداخلي، الذي كان يمثله الصراع والخلاف بين ربيعة ومضر، وقبائل اليمن والحجاز والعصبية القبلية.

حقا ان العصبية ـ سواء أكانت عصبية لغوية أو عصبية اقليمية، أو عصبية حضارية، أو عصبية عنصرية ـ داء عضال، ومن أجل التفادي من ذلك قد أعطانا القرآن هذا التوجيه السديد:

﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾[1].

والخطاب في الآية الكريمة ليس موجها الى الأفراد وحدهم، بل الى الجماعات والأمم أيضا، لأن الداء الذي يريد القرآن أن يحذر منه، ربما قضى على الدول والحكومات، والأمم والأقوام، وقلت لعديد من أخواننا في الهند الذين كانوا يريدون أن يشدوا الرحل الى باكستان: أوصيكم أن تتجردوا من شعوركم المتطرف بالتفوق، وبكونكم أولي حضارة خاصة، ويجب عليكم أن تندمجوا مع اخوانكم في باكستان ساكني تلك المناطق التي قامت فيها دولة باكستان.

ايها السادة! ان باكستان اليوم تستطيع أن تؤثر في خريطة العالم، وأن تؤدي دورا فريدا يسجله التاريخ بالحروف الذهبية، اذا اندمجت الجنسيات وتجاوبت العناصر

١ـ سورة الحجرات ـ ١١.

المختلفة التي تشكل سكان باكستان، من الواردين اليها، والقاطنين فيهـا مـن القـديم، وعـادوا اخوانـا متحـابين متفاعلين، لا فرق بينهم، يشعرون شعورا واحدا، لأن الشعور الزائد بالتفوق والامتياز هو الخطر المدلهم الذي كان السبب في سقوط المسلمين في اسبانيا، والأفعى التي ابتلعت دولتهم، فالعصبية القبلية والعنصرية هي التي فعلت فعلها، فلم يرفعوا رأسا الى خطر المسيحية الذي كان يترقبهم كالسيف المصلت على الرأس، وتشاغلوا بمصالحهم القبلية، والعناية بالاحتفاظ بأغراضهم وأهدافهم، وأرجو أن اخواننا أهل باكستان سوف لا يسمحون لهذا الخطر يجوس خلال ديارهم... وأعتقد أن هذا الحفل الكريم الذي ضم عناصر خيرة صالحة، من أهالي باكستان، هو خير مناسبة للدلالة على الأخطار، والابداء عن الخلجات التي تساور نفسي، حتى تأخذوا حذركم، وتصعدوا عملية الاصلاح، والقضاء على العصبيات، التي سوف لا تموت بالضربات الموجهة اليها مباشرة، وانما تموت عن طريق تعميم السلوك الاسلامي، والوحدة الاسلامية، والأخوة الاسلامية والتربية القرآنية، والعدل والمساواة التي علمها الاسلام، حتى لا تعود هناك قضية تهم شعب باكستان في أرجائها الا الاسلام والاسلام وحده.

اني أعتقد أنه ليس في العالم البشري اليوم الا جبهتان متعارضتان، جبهة الاسلام، وجبهة الجاهلية، والمعارك كلها

تتلخص في المعركة بين الاسلام والكفر بين الدين واللادينية ، واذا كان هناك تقصير ما فانه سيؤدي الى أسوأ عاقبة ، ويحلو لي أن أتلو عليكم الآية التي خاطب بها القرآن الكريم المجتمع الصغير ، المجتمع الاسلامي في المدينة المنورة ، ذلك المجتمع الذي كان مكونا لا من الجنسيتين المختلفتين : من الأنصار والمهاجرين فحسب ، بل كان الأنصار كذلك تتوزعها قبيلتان ، الأوس والخزرج ، اللتان قد سبقت بينهما سلسلة من الحروب الدموية ، ومواقف أخذ الثأر والانتقام ، فقد حاربت احداهما الأخرى طول ٤٠ عاما تباعا وكانت لا تزال بينهما البقية الباقية من الاحن والحقد ، وروح الانتقام ، قد يشغل عواطفهما بيت واحد ، وقد حدث مرة أن أخلاطا من الأوس والخزرج كانت قد ضمها المحفل ، اذ طلع عليها رجل من اليهود داهية وانتهز الفرصة ، وبدأ يتلو قصيدة كانت تحكي القصة الدموية التي قد وقعت بينهما ، فاشتعلت العواطف ، وكادت السيوف أن تتقارع ، واحمرت العيون ، اذ حضر رسول الله ﷺ ، وأطفأ الجذوة المشتعلة ، ولفت الناس الى الوحدة الاسلامية والأخوة الايمانية التي لا نعمة فوقها ، هذا المجتمع الصغير ، والوحدة المتواضعة ، ما شأنها أمام هذا العالم الفسيح ، أمام الدولة البازنطية ، والمملكة الساسانية ، وقوى الشرق وقوى الغرب ، لكنهم طولبوا بإحكام هذه الوحدة ، وتعميقها وتأصيلها ، ووجه اليهم الانذار : ﴿الا تفعلوه تكن فتنة في

الأرض وفساد كبير﴾[1]، وذلك لأنهم - وان كانوا في عدد ضئيل - كانوا جوهر الانسانية، وخلاصة البشرية، وكان مصير الانسانية مرتبطا بهم، وكانوا موضع رجاء البشرية، وكان بوسعهم أن يؤثروا في مصير الأمم والملل، ومصير الانسانية كلها، ومن ثم قيل لهم: ان زلة واحدة منهم وثغرة واحدة في وحدتهم، تسبب فسادا شاملا كبيرا في الأرض، ولا يقتصر الأمـر على مصيبتهـم وشقـائهم وحدهم.

أيها السادة!

اذا نشطت هذه العصبيات الجاهلية في باكستان، تلك العصبيات التي يستغلها المكرة والدهاة وأعداء الانسانية، فليست هنـاك قـوة تنقـذ بـاكستـان مـن هـاويـة الهلاك والدمار... واذا أخفقت تجربة تنفيذ الشريعة في ربوع باكستان - لا قدر الله - فسوف لا يعود أحد يفكر في هذه التجربة في أرجاء المعمورة.

أقول لكم بكل تأكيد ان أوربا، وجميع دول العالم غير الاسلامية، تحسب كل الحساب للدول الاسلامية التي يرتفع فيها صوت تطبيق الشريعة الاسلامية، فلئن أخفقت هذه التجربة، فانها تكسب المعركة، وتستغل الموقف، وتفعل

١- سورة الأنفال - ٧٣.

أفاعيلها... فأنتم في مرحلة حرجة جدا، تتطلب منكم أن تكرسوا لانجاح هذه التجربة كل قواكم، وكفاءاتكم، وذكاءكم، ومواهبكم العقلية والفكرية، انها لمحنة العزيمة والهمة، والشهامة، والاخلاص وروح الايثار، والتعاون والتناصر... يجب أن تضربوا - بهذه المناسبة العظيمة - عرض الحائط جميع الخلافات، يتطلب الموقف أن تترفعوا عن المصالح الحزبية في صالح باكستان، بل في صالح الاسلام واذا استوفيتم هذه الشروط، فستبتدأ صفحة جديدة للتاريخ، ويبتدىء عهد جديد، واذا تم قيام هذا المجتمع الاسلامي الذي نتوخاه، فسوف يرتاد باكستان السياح والمراقبون، والمعلقون، لكي يشاهدوا بعيون رؤوسهم، ويتحدثوا عنه في أجزاء العالم، فيقول الواحد منهم: قد رأيت مجتمعا لا يعرف الاثم والعدوان، ولا يبتلع فيه الانسان الانسان، يحدب كل عضو فيه على الآخر حدب الامهات على البنين، إنه لمجتمع مثالي، تجد النفس فيه هدوءها ويجد القلب طمأنينته، وتقر به العين، وتهدأ فيه الروح، ويشعر الوارد فيه كأنه دخل في الجنة والنعيم.

لكن ذلك لا يتم بالعصا السحرية، وحجر الفلاسفة، وانما تحتاجون في سبيله الى التضحيات التي تتطلبها مثل هذه النعمة العظمى الفريدة، التي يتوقف عليها في الغد رقيكم، ورقي هذه البلاد، وامتداد الاسلام وانطلاقه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

واجب أصحاب الإختصاص وكبار المثقفين

(ألقيت هـذه المحـاضرة في جـامـع «فيصـل آبـاد» (باكستان) في ٢٢/ يوليو ١٩٧٨م، واستمع اليها النخبة الممتازة من العلماء والمثقفين بالثقافة العصرية وأساتذة مراكز الثقافة العصريـة والمدارس الاسلاميـة، والمسـؤولـون عـن القطاعات السياسية والاجتماعية، والدوائر العلمية والأدبية والثقافية والصحافية)

قال بعد ما حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيه العظيم وسلم:

أصحاب الفضيلة والسعادة : رجالات العلم، وأساتذة المدارس والجامعات قبل أن أدخل في حديث موسع، أريد أن أضع أمامكم نقطة مبدئية بالايجاز:

قد تضاعفت اليوم مسئولية العلماء والمثقفين، ان دعوة أو حركة ـ اذا كان قادتها من أولي الطبقة العليا في الأمة،

من أصحاب الذكاء الموهوب ورجالات الفكر والرأي، وذوي التعمق في الكتاب والسنة والعلوم الدينية ـ تكون ذات عمق وجدية، ونضج واكتمال، وتوازن واعتدال، يرجى فيها أنها سوف لا يواكبها انحراف عن الخط المستقيم في أي مرحلة من مراحلها، وتكون ـ في طول الطريق ـ على نجوة من العاطفية والتطرف، والسطحية والابتذال... والعلماء وأصحاب الفكر كانت مسئوليتهم عظيمة ضخمة في كل العصور الاسلامية، لكنها اليوم تضخمت واتسعت وازدوجت أكثر من ذي قبل، وأصبح رجال العلم والفكر، وقادة الجماعات الدينية والمسئولون عن المؤسسات والحركات الاسلامية، في موقف صعب معقد، وأصبح الشعب الاسلامي يتطلع اليهم كمنقذي الانسانية، ويرى أنهم سيقومون بالتوجيه السديد، والقيادة الناجعة، ويتفادون بالحركات الدينية، والمحاولات الاسلامية، من السطحية، والتطرف، والمغالاة، حتى لا يعتقد فيها أحد أنها كسحابة صيف عن قليل تنقشع، أو كزبد يذهب جفاء، بل يرى الناس فيها أنها راسخة الجذور، بعيدة الغور.

مأثرة العلماء في الدول الاسلامية

أيها السادة! لو لم يكن العلماء ورجال الاجتهاد والفقه يقفون من وراء خلافة بني أمية وخلافة بني العباس، لما وجدت هذه القوانين الاسلامية المدونة التي تغطي جميع

مناحي الحياة، ويستوعب الحياة الانسانية من المهد الى اللحد، ولما كان الاسلام متجليا في صورة نظام للحياة منسق ومرتب.

ان التاريخ يصب المدح والثناء على القادة والفاتحين، فبطولات قادتنا أمثال طارق بن زياد، ومحمد بن القاسم، وعقبة بن نافع، وموسى بن نصير ومآثرهم، ساطعة في صفحات التاريخ، سطوع الشمس في الضحى، لكن الذين كانوا يقومون بتنفيذ قوانين الله في البلاد المفتوحة للاسلام ويحلون المشاكل والقضايا التي كان يواجهها المسلمون في تلك المناطق الجديدة، ويحققون حاجات كانت تستجد فيها ويقومون بتوجيهات في الأحوال والأوضاع المتجددة فقلما يعرف الناس قيمة خدماتهم، ومدى تأثيرهم في البلاد والعباد على حين انه لو لم تكن عقول رجال الاجتهاد والفقه والحديث تعمل عملها من وراء السيوف الفاتحة للبلاد، والأيدي الشجاعة المخضعة لعباد الله لله وحده، ولو لم تصاحب الحكومات التي كانت تنظم البلاد وتضبط الأمور، وتدير الشئون، لكانت تلك المحاولات كلها، والفتوح كلها، والدول والحكومات جميعها، جوفاء لا روح فيها ولا حياة.

الفاتحون للمسلمين يقعون مفتوحين للاسلام

ولنذكر مثلا أن التتار زلزلوا العالم الاسلامي، وفككوا

عراه، وجعلوا أهله قطيعا من غنم، أو لحما على وضم، فما كان هناك أمة أذل من المسلمين على ظهر هذه البسيطة، ولو رأيت صور هذا العهد التي لا تزال تضن بها المتاحف اليوم لوجدت أن مسلما، معقودة لحيته بذيل الحصان، ويقوده التتاري، كان لكل شعب وقوم في العالم قيمة في أعينهم الا الشعب الاسلامي، ولا سيما مسلمي تلك المناطق التي كانت مهد حضارة المسلمين وثقافتهم، أعني مناطق ايران وما وراء النهر، التي كانت مركز الفقه في العهود الأخيرة وسيما الفقه الحنفي... لكنكم تعلمون أن هؤلاء التتر الذين فتحوا المسلمين، وقعوا مفتوحين للاسلام، أولئك الذين لم تستطع سيوف المسلمين أن تخضعهم، أخضعتهم حضارة المسلمين وثقافتهم، وعلومهم، واطرحوا على عتبتها عبيدا بارين، وخدمة منقادين مستسلمين.

وذلك لأن التتر لم يكن عندهم تراث علمي، ورصيد من الحضارة والمدنية، والقوانين المدونة الشاملة، والكتب والمؤلفات، بل كانت عندهم دساتير قبلية تقليدية بسيطة وأعراف قومية وحشية كانت متبعة في مناطق جبال قراقرم ومما حواليها فاحتاجوا الى العلماء المسلمين ورجال الفكر والاجتهاد من المسلمين وما أن احتكوا بهم، وترددوا الى بلاطهم، حتى أخذوا بعلومهم وذكائهم، وفكرهم واجتهادهم، واستهوتهم الحضارة الاسلامية، فأسلموا بمجموعهم.

وقد قررت فلسفة التاريخ كمبدأ هام، أن القوة الحربية والاستراتيجية لا تكسب النجاح ما لم تساندها العقول المفكرة، وقوة التشريع والتقنين، والمؤسسات المنظمة... وقد كان المسلمون أولي ذكاء ومواهب، كانت لديهم منابع التفكير والاجتهاد، وحضارة متقدمة، وثقافة عظيمة، وتراث علمي عريق عتيد، وتجربة موسعة دقيقة في باب التقنين والتشريع، يتمتعون بقدرة فائقة لحل المشكلات والقضايا المدنية، وقد اضطرت الأوضاع التتر أن يستنجدوا المسلمين في هذه النواحي كلها، فكان ما كان.

ان هذا الدين نابع من العلم

ومن واجبات العلماء والمسلمين، وأساتذة الجامعات، ومعلمي المدارس والكليات، ورجال القانون، والأدباء والمفكرين، أن يثبتوا في العصر الحاضر أن هذا الدين لا يمت الى الجهل بصلة ما، انه ليس وليد الجهل، أو القوة الحربية انه وليد المعرفة، والهداية الالهية، والوحي الالهي، والعلم الرباني، انه يستطيع أن يرافق الزمان في كل أوضاعه وملابساته، ومشكلاته ومعضلاته، ويقدر على ان يوجه المدنية، ويراقب الحضارة ويتعهدها، ويمنعها من الشذوذ والانحراف، والتفسخ والفساد والهدم والافساد.

ان هذا العمل العظيم، لا يستطيع أن ينهض بعبئه الا علماء الدين والطبقة المثقفة العليا، وانه لمسئولية عظيمة على

اكتافهم، لأنه خطر كبير على دين أو أمة يعتقد فيهما الناس أنهما لا يتصلان بالعلم، بل انهما عدوا العلم، وصديقا الجهل، يضرهما العلم وينفعهما الجهل، لأن الناس حينئذ يرون أنهما لا يستطيعان أن ينفذا في القلوب، ويتملكا العقول، ويقنعا النفوس، فلهما صولة وجولة ما دامت السيوف تحميهما، والقوة الحربية تقف من ورائهما، ويخيم الجهل رواقه عليهما، وما أن يسطع نور العلم حتى ينقشعا، كالظلمات تنجاب عن اشراق الشمس.

وتلك هي قصة المسيحية، التي لم ترافق العلم، وانما برزت كحركة روحانية اجتماعية، نعم قد وجهها المسيح عليه السلام توجيها نبويا صحيحا فأثرت تأثيرها المطلق بحكم وجاهته، وقدسيته، وقوته الروحية، وشخصيته القوية، وفراسته النبوية، أما بعده، فلم تتمتع الى زمن طويل بتوجيه سديد من الأذكياء أولي الألمعية والبصيرة الايمانية، فتشوهت صورتها وسيرتها ولما دخلت في أوربا ظن الناس أنها لا تستطيع أن تساير الزمان، فلا بد من عزلها عن شئون الحياة، ولتعش حبيسة المغارات والكهوف، والأديرة والكنائس.

المسيحية لا تحمل شريعة مستقلة

كانت أوربا وقتذاك تقفز قفزات واسعة، تقطع مراحل الرقي والتقدم بخطى حثيثة، تتدفق في المجتمع

الأوروبي قوى الرقي والانطلاق، وكان هناك صراع عنيف حول « التنازع للبقاء » وكانت المسيحية التي كانت في دور طفولتها ولم تحظ بتدوين وشرح وتنسيق، ولم يكن لديها قانون مستقل، فكانت تعتمد على القوانين اليهودية، وتتطفل على مائدة الشريعة الموسوية، بتغيير يسير وتعديل خفيف، ومن ثم قال المسيح عليه السلام: « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم »[1]، ولم يقل اني جئتكم بشريعة مستقلة، اذاً، فكانت المسيحية تصلح ما أفسدته اليهودية، ولم يكن عندها دستورها الذاتي، وكان جلّ عنايتها مصروفا الى الرحم والرأفة، والحب، ومؤاساة الانسانية، والحدب على الضعفاء والمظلومين، وتحرير المسحوقين، والقضاء على السيادات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

ولما وصلت المسيحية الى أوروبا الفتية المنتعشة، المتدفقة المتوثبة، وتعرف بها أهلها الذين كانوا يسابقون الرياح في ميدان التقدم، ويمرحون، ويرقصون رقص العواصف الهوجاء، اكتشفوا سريعا أنها - أي المسيحية - لا تستطيع أن تساير الزمن المتطور، والمجتمع السباق، والركب المتقدم، والعلم المتدفق، هنالك فرّط العلماء المسيحيون في جنب المسيحية أيما تفريط، فقد كان الموقف يحتم عليهم أن يثبتوا حين ذاك مصلحة المسيحية وغناءها وأن يجودوا على

١- سورة آل عمران ـ ٥٠.

المجتمع الأوربي بتوجيهات مبدئية، وأن يستقبلوا متطلبات الوقت ومقتضيات الانسان - التي لم تكن تتعارض مع صميم المسيحية - ثم يطالبوا الناس بمراعاة روح الدين وتعاليم المسيحية في تحقيق رغباتهم ومتطلباتهم، لكنهم لم يصنعوا كل ذلك، بل توزعوا في طبقتين: طبقة الحكام ورجال الدين، أو طبقة علماء الدين ورجال الادارة والحكم، وعادت الطبقة الأولى، لاتؤمن بالمسيحية الا كعقيدة وحدها، لا شأن لها بالحياة وبالحكم وتنظيم شئون الحياة، وادارة الحكم والسياسة، والتشريع والقانون، أما الطبقة الثانية، فلم تعد وظيفتها الا معارضة الطبقة الأولى، والوقوف في طريق الرقي، ورأوا أن التقدم هو الفرار عن الحياة، والهروب من ضجيجها وضوضائها واللجوء الى الكنائس، والاعتزال في الغابات، والعزوبة، والعزوف عن النساء، والفرار من ظلهن، واعتقدوا أن تلك هي طرق الاحتفاظ بالروحانية.

على كل فكلتا الطبقتين ألحقتا بالمسيحية ضررا فادحا، فالطبقة الحاكمة تحررت من كل حد وقيد، وعادت تصوغ هيكل المدنية في عزلة عن تعاليم المسيحية وصارت تستعبد الناس، وخطا بعض المعارضين للمسيحية خطوة أخرى، فنالوا منها في قارعة الطريق، وجعلوها عرضة لكل تهمة وضعف وسقطة، وبدأت كل هذه الألاعيب منذ «سنت بال» ولا تزال المسيحية سائرة على هذا الدرب مما جعل الناس أن قطعوا آخر خيط كان يربطهم بالكنيسة، ووقع

الخليج بين الكنيسة والامارة للأبد، وظلت المسيحية يتقلص ظلها حتى أصبحت نقطة لا تتضح.

الاسلام والعلم متلازمان

والحمد لله ان هذا الخطأ لم يقع في عالم الاسلام. لان الاسلام والعلم ظلا متلازمين منذ اليوم الأول، وقد قلت في الكلمة التي ألقيتها في جامعة «كراتشي» أن الدين الذي كانت بداية نزول وحيه بكلمة «اقرأ» ولم يتجرد وحيه الأول من ذكر القلم، ما كان ليفارق العلم والقلم في أي زمان ومكان. ولا يمكن في دنيا الاسلام أن يتصور أحد مفارقة الدين للعلم، لأن الاسلام والعلم رفيقان وفيان منذ بداية الطريق... وتعلمون أن أسرى بدر الكافرين. كان عدد منهم لا يستطيع أن يفكوا رقابهم بتقديم الفدية، وهنالك جعلت فديتهم أن يُعلّم - كل منهم - عشرة أفراد من اولاد الأنصار والمهاجرين.

الاسلام لا يساير الزمان فحسب بل يوجهه، ويقوم بارشاده

قد كان أكبر واجبات العلماء المسلمين اليوم أن يربأوا بالاسلام من أن يزعم الشباب المعاصر، أنه يقوم على ركيزة من القوة والحكومة، ولا يستطيع أن يجاري تقلبات الزمان وتقدم العلوم والفنون، وقد تقادم عهده، وولى دوره ونفدت بطاريته، قد كان له أن يساير العصور البدائية

الساذجة المحدودة النطاق، حينما كانت البشرية في عهد طفولتها، أما في هذا العصر، عصر المدنية المتقدمة، المعقدة المتشعبة، فلا يملك أن يمثل دورا في الحياة.

كان من أضخم مسئوليات علماء الاسلام أن يواجهوا هذا التحدي، وأن ينسقوا هذه المدنية مع مبادىء الاسلام، باستخدام ذكائهم، ودراستهم العميقة والمرونة والنعومة التي يتمتع بها أصول الفقه في الاسلام، بمعونة من مبادىء الكتاب والسنة التي تستطيع أن ترشد الأجيال البشرية في كل زمان... والتقصير في هذا الجانب، أقل نتيجته هو التحرر من الحياة الاسلامية، والتجرد من تعاليم الاسلام وأحكام الكتاب والسنة، وأسوأ عاقبته هو الالحاد واللادينية والثورة على الدين والخروج على تعاليمه، ونرى الدول الاسلامية تتوزعها هاتان العاقبتان الوخيمتان، اللتان تعتبران ثورة على الرسالة الالهية والتعاليم المحمدية.

ومن ثم فان العمل الأول والأهم اليوم أن نثبت أن الاسلام بروحه، ومقاصده، ومبادئه العتيدة، يستطيع أن يساير الحياة، حاشا لله، بل يستطيع أن يقودها ويوجهها، لأن مسايرة الاسلام للحياة هي شيء تافه متواضع لا يتفق وشأن الاسلام ومكانه ومركزه في الحياة، والكون، وانما عبرت بالمسايرة تنازلا... ومكان الاسلام الحقيقي هو أنه وحده يقدر على ان يرشد الحياة، وينقذها من الأخطار والأهوال... والمدنية التي شذت عن تعاليم الاسلام ومبادئه

مدنية زائفة، والامارة أو الدولة التي انحرفت عن التعاليم الالهية عرضة لكل خطر، ومصيرها الفناء والانهيار، مهما كانت موطدة الأركان شامخة البنيان.

يجب أن نؤثر الاسلام على جميع المصالح والأغراض

ومسئولية العلماء والمفكرين المسلمين ثانيا، أن يفضلوا الاسلام على كل جماعة، ومؤسسة، ومدرسة، وطائفة، وحزب، أيها السادة! اذا رأيتم أن بقاء الاسلام يتطلب أن تمحى جميع الأسماء واللافتات، والشعارات ، والشارات، والأحزاب والجماعات، فليكن ذلك موضع عنايتكم، ولا يقعن تلكأ منكم أو احجام للحظة واحدة، ولتكن مصلحة الدين والعقيدة مفضلة على كل مصلحة حزبية أوجماعية، وليكن نصب أعيننا هو الدين والايمان، وانتصارهما، سواءا رجع الفضل الينا أو الى غيرنا من الاخوان في العقيدة والدين، وقد كان من معجزة نبي الاسلام الأعظم سيدنا محمد ﷺ أنه جعل أصحابه لا يطمعون في أن تنمى اليهم مأثرة، أو يرجع اليهم الفضل في تحقق بطولة، كان همهم الوحيد هو تحقيق المأثرة والبطولة، وارضاء ربهم تبارك وتعالى، ثم لا يبالون بشيء.

وقد كان الصحابة يحزنون اذا اضطروا الى الاشارة الى عمل قاموا به لوجه الله الكريم، كأنهم قد أفشوا سرا،

كان الضن به واجبا، فقد روى الامام البخاري رحمه الله بسنده عن أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه، قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي وسقطت أظفاري، وكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع، لما نعصب من الخرق على أرجلنا، وحدث أبو موسى بهذا، ثم كره ذلك، قال: ما كنت أصنع بأن أذكره، كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه»[١].

ولكن اليوم تغير المقياس، وتغيرت النفسية والعقلية، فأصبح الهم يتركز على الانتماء الى مأثرة، وعمل جليل، وبطولة نادرة، بحق وبدون حق.

وقد ذكرتني المناسبة بقصة طريفة : كان خطيب مناظر من احدى ولايات بلادكم، اسمه غازي محمود دهرم بال (GHAZI MAHMOOD DHARAM PAL) سمعته يقول في خطبة: أرى الصحف تنشر خبر اسلام امرىء، فتنشره مقرونا بمن تشرف المرء بالاسلام على يديه الطاهرتين، حتى يتسامع الناس باليدين الطاهـرتين كما يتسـامعـون بـاسلام فلان، وربما تكون العناية بالتنويه، «باليدين الطاهرتين» أكثر من اسلام فلان، وأكثر من ذلك أننا رأينا بعض

١ـ صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع.

الناس يتبادرون الى امامة صلاة الجنازة، اذا كان المتوفى رجلا له شأن ومكان، لكي تنشر الصحف خبر هذه الامامة لهذه الجنازة العظيمة.

أيها السادة! انها عاطفة خبيثة، قد تعود وبالا على صاحبها، ترون أن قريبا من أقربائكم اذا ألمّ به مرض يتمنى كل أقربائه، أن يعافى المسكين، بحيلة أو باخرى، ولا يبالون لمن يرجع اليه الفضل، الى أحدهم أو الى الطبيب، فكذلك العالم الاسلامي، مصاب بالمرض اليوم، وبلادكم مريضة فلتتركز عنايتكم على الشفاء والدواء، سواء وقع الشفاء في حسابكم أو حساب غيركم، ولا تكترثوا بما عسى أن يسجله المؤرخون، وأي جماعة يحبذونها، وأي حزب يعطونه الأولية لدى المدح والثناء... لم يستطع رجال التاريخ والمعنيون بفلسفته، أن يتوصلوا بالضبط والتحديد الى من كان له الفضل الأكبر في دخولهم في حظيرة الاسلام، لأن المؤمنين المخلصين الذين عملوا على ذلك في صمت وفي هدوء، قد كتموا عملهم من حيث لم يستطع نظر التاريخ النفاذ الى يومنا هذا أن يقع عليه، ويتوصل اليه.

ليكن كل منكم جندياً صغيراً وفياً في المعركة التي تجري على ساحة هذا البلد من أجل اعادة الاسلام، والشريعة الاسلامية الى مكانتها الأصيلة، ومن أجل صوغ

الحياة، والمجتمع والمدنية في قالب الاسلام، وتخليص المجتمع من المفاسد التي تسربت اليه بفعل المدنية الغربية وعلى أيدي ساستنا، وأخلصوا العمل لله، تسجل أسماؤكم في سجلاته القدسية النورانية، ولا تبالوا بالثناء الحقير، أو التحبيذ المتواضع أو الشهرة التافهة، في هذه الدنيا الحقيرة الفانية بين هذا الخلق الفاني.

وليكن موضع اعتباركم أن المعركة الحالية ليست بين مدرستين فكريتين، وانما هي بين الاسلام والجاهلية، وبين الدين واللادينية، فتصوروا كأن هناك مسجداً يجري بناؤه، فكل من ساهم فيه سينال الجزاء حسب اخلاصه واحتسابه، ولا ينبغي لأحد أن يبحث عما اذا كان اسمه في اول قائمة الذين ساهموا في بناء المسجد، وعن تسجيل كمية المساهمة التي قام بها، يجب أن نحارب مثل هذه العاطفة الغير المحمودة، ونتغلب عليها ونخضعها الى حد مستطاع.

اصرفوا عنايتكم - على اختلاف الطبقات والمسالك، والمذاهب والمناهج - الى هذه الجبهة، جبهة الدعوة الاسلامية، وجبهة صوغ الحياة في بوتقة الشريعة الاسلامية، وليكن هذا البلد الكريم نموذج الحياة الاسلامية، التي يمكن أن يراها الانسان بالعيان، بل يلمسها بالبنان.

لا بد من الايثار وتقديم التضحية

والأهم من كل ذلك، أن نعمل بالايثار، ونتجنب

الخصام، وبقدر ما تكون حياتنا بسيطة، ومعيشتنا ساذجة، وبقدر ما تكون حياتنا مشفوعة بالايثار والتضحية تأتي النتيجة أحسن والثمرة أحلى بقدر ذلك، والشيء الذي يكمن فيه الخطر العظيم هو التخاصم والتطاحن، ومن هنالك يتحتم أن نتحاشى عن التعرض للمباحث الدينية لأن لها محلها ووقتها، وقد صرح الامام احمد بن عبد الأحد السرهندي (المعروف بمجدد الألف الثاني) في احدى رسائله، أنه قد كان السبب في تقزز الامبراطور المغولي «أكبر» من الاسلام وخروجه من ربقته هو تناقر العلماء كالديوك، فقد كانوا يناقشون مناقشة ساخنة حول المسألة المطروحة، وكل منهم كان يحاول جهده أن يثبت تفوقه على الآخرين، شأن الذين يسعون وراء الجاه والمنصب، وشأن المتهالكين على زهرة الدنيا ونعيمها، من عباد المادة والمعدة، وهنالك فكر «اكبر» وقال في نفسه: انهم أخس من وزرائنا، وملئنا، ورجال حكومتنا ومن الماديين المتهافتين على حطام الدنيا،

ولما بلغ الشيخ السرهندي أن الامبراطور «جهانكير» ابن «أكبر» يريد أن يخص عدداً من العلماء لبلاطه يستشيرهم، ويأخذ بنصائحهم، كتب الى الأمير سيد فريد، وقال: أشر على الامبراطور أن لا ينتقي لبلاطه الا عالماً واحداً يخاف الله، ويخشى حسابه، وحذار أن يجمع بين عدد من العلماء... وذلك إن دل على شيء فانما يدل على فراسة الشيخ السرهندي وألمعيته البالغة حيث أدرك الحقيقة، وأشار

بالصواب، ولكن لا أقول: انه يجب الاقتصار على عالم واحد في كل قضية، وفي كل مناسبة، وفي كل موقف، ولكني اريد أن أؤكد أن تخاصم العلماء وتطاحنهم يؤدي الى مثل هذه النتيجة المكروهة المؤلمة المشار اليها.

ان الخطر - يا سادة - اذا كان قائماً على الرأس كالسيف المصلت، فلكل حق أن يحذر منه ويشير بأخذ العدة التي يقاوم بها الخطر، حتى الطفل له حق أن يقول: ان الباب - مثلا مفتوح يخاف منه اقتحام السارق... فأريد أن يكون الأمور المشار اليها موضع عنايتكم، ولا يشغلنكم عنها شيء.

أولاً: أنقذوا الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية أن تظن أن تعاليم الكتاب والسنة والفقه وأصول الفقه الاسلامي، لا تقدر على مجاراة المدنية المعاصرة، ولا تستطيع أن تحل القضايا المتجددة، لأن ذاك شيء خطر جداً، قد يؤدي الى الالحاد واللادينية.

ثانياً: لا بد أن يراكم الشعب ورجال الحكومة أرفع من مستواهم أنفسهم، وذلك بالحياة البسيطة التي تحيونها، وبالقناعة باليسير القليل من متاع الحياة، ولا يرينكم تتطلعون الى المرتبات العالية، والامتيازات الكثيرة، والمنافع الكبيرة التي يتمتع بها الوزراء والحكام، ولا يرينكم تتحلب شفاهكم لما يتقلبون فيه من عيش رغيد باذخ ونعيم خافض،

ويملكونه من قصور شامخة وسيارات فاخرة ذات النوعية الممتازة.

أصارحكم أيها السادة! أن البلاد اليوم تحتاج الزاهدين القانعين الذين يفترشون الغبراء، لأن هذه الطبقة العالية لا تخضع الا لأمثالهم، ولكن لا أشير عليكم أن تتكلفوا الزهادة وأن تصنعوا صنيع الزهاد، لكن الواقع أن الناس يرتمون في حضن من يرونه زاهدا فيما عند الناس، قانعاً بما قسم الله له، ترون أن الشيخ السرهندي لماذا خضع له امبراطور عصره؟ لأنهم رأوا أن هذا الرجل الأبي، لا يتردد الى البلاط، ولا يطوف على الأمراء والكبار، ولا يشفع لأحد،وانما يذكر ربه خالياً قابعاً في ناحية مفردة، وينصح الناس، ويخلص لهم الود، ويسدي الينا بالتوجيه والمشورة، وكذلك صنع جميع علمائنا العاملين، لم يختلفوا الى الملوك، ولكنهم راقبوهم من بعيد، ووفروا للحكومة رجالا أمناء، ودعوا لها ولم يبخلوا عليها بمشورتهم الغالية، ولكنهم كانوا يقولون: خير أن تصطلي بالنار من بعيد، أما اذا ألقيت يدك فيها فهي تحرقها.

هذه ملاحظاتي وعصارة دراستي وضعتها أمامكم، وقد تحدثت عنها في مناسبات كثيرة، وعصارتها أن الوقت هو وقت محنتنا ومحنة العالم الاسلامي كله، يجب أن نثبت جدارتنا وصلاحيتنا، وأخاف أن شعور الناس بضعف

صلاحيتنا قد يلحق ضرراً بالاسلام، ويسجل المؤرخون ويتحدث الناس: أن هذه الخسارة قد جلبها عدم جدارة العلماء وقلة كفائتهم، ومعذرة اليكم اذا بدرت مني كلمة ساءتكم، وختاماً أتضرع الى الله العلي القدير أن يوفقنا لهذه الغاية، وييسر لنا المهمة ويهدينا سبيل الرشاد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

هَذهِ الدّنيا وَقفٌ مُقَدّسٌ،
وَلَيسَت بدكّانِ تَاجِرٍ

(ألقيت هذه المحاضرة في حفلة ترحيبية عقدت على شرف المحاضر في المكتب المركزي لمصلحة الأوقاف بمدينة «لاهور» في ٢٧/ يوليو ١٩٧٨ م، حضرها العلماء والقضاة والمحامون، ورجالات القانون والمثقفون)

بعد الحمد والصلاة:

أصحاب الفضيلة والسعادة، العلماء، والمسئولون عن وزارة الأوقاف والعاملون فيها، والمستمعون الكرام!

اني أشكر وزارة الأوقاف على أنها شرفتني بتوجيه الدعوة اليّ للحضور في هذا الحفل الكريم والحديث اليه، وقد كنت ظننت لما تلقيت الدعوة أن الحفل سيكون مشتملا على عدد محدود من أولئك السادة الذين يتصلون بادارة الأوقاف وأني سأسعد بالتعرف عليهم والاستفادة منهم، ولكني لما حضرت فوجئت بأن المطلوب مني الحديث

في الحفل الكريم حول موضوع «حاجة العالم المعاصر الى الاسلام».

وشغلني التفكير فيما عسى أن تكون صلة هذا الموضوع بمصلحة الأوقاف الكريمة، ولم يطل تفكيري، وتوصلت الى الحقيقة، وأدركت عمق هذه الصلة، حيث ان دنيانا هذه في الواقع هي وقف مقدس وانما يصلح لتوليها أولئك الذين يعرفون تمام المعرفة مقاصد هذا الوقف، ولا يهتمون بأهداف الواقف فحسب، بل يخلصون لها في غاية الأمانة والوفاء.

وأصبحت الدنيا اليوم وقفا مظلوما، لا يعرف الذين يتولون أمره، ويقومون عليه المقاصد التي أريدت من ورائه، بل انهم يحاربون هذه المقاصد، ولم يكتشفوا بعد من هو واقف هذا العالم الانساني، وهذا الكون؟... انكم تعرفون جيداً عن تجربة أنه لا بد أولا من الاطلاع على الواقف، ثم الاطلاع على غايته، ولا بد ثالثاً أن يكون المتولي يشعر نحو الوقف بأنه متوليه الأمين الوفي... وقد جاء التعبير في القرآن الكريم عن تولية هذا الوقف بألفاظ كثيرة، فجاء في موضع: ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[1]... ان هذا «الاستخلاف» أيضاً نوع من التولية، فقد خلق الله هذا الكون، وفطر هذه الارض، وعمر عليها

١ـ سورة الحديد ـ ٧.

هذا الانسان وقال: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ [٢]، فكأنه ولى الانسان جميع ما في الأرض ولكن أكد عليه أنه ليس مالكه الحقيقي، بل انه خليفته فيه، فيتصرف فيه حسب مشيئة المالك الأصلي، ولا يجوز له أن يتخطى رضاه، ويتعدى أوامره وارشاداته في هذا الصدد...

ولكل وقف - مهما كان صغيرا - قوانين مقررة، والمنبر الذي نتحدث منه اليكم مكتب مركزي من مكاتب مصلحة الوقف، التي أساسها الحفاظ على الأوقاف وأرجو أنكم جميعا أوفياء أمناء في عملية الحفاظ، وتحقيق الأغراض المنشودة من الأوقاف... ولكن مسكينة هذه الدنيا، ومسكينة هذه الكرة الأرضية الواسعة، لأنها وقف لا تجد نظيره في تاريخ الأوقاف، فقد يتصرف القائمون عليه كما يشاؤن ويعيشون، ويفسدون..وقد كان الله سبحانه وتعالى هو الذي وقف هذا الوقف، وجعل الأنبياء والرسل وأممهم متولية وقائمة عليه، وكان متوليه الأخير هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فدته أنفسنا وأرواحنا.

الأمة المسلمة ليست كحشائش الغابة والشجيرات التي تنبت عفوا:

ومزية سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين

١- سورة البقرة - ٢٩.

جميع الأنبياء والرسل، أنه لم تكن بعثته بعثة نفسه وحدها كالانبياء الآخرين، بل كانت بعثة أمة أيضا، ومعنى ذلك أن هذه الأمة ليست حشائش الغابة أو الشجيرات التي تنبت عفوا، أو ليست كهوام الأرض، ان القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة كلاهما يذكران هذه الأمة بكلمات تنبىء عن المسئولية الجسيمة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[٣]... كلمة «أخرجت» تدل على أنها أنشئت لغاية: للحفاظ على الانسانية، ولتحقيق أهداف رب العالمين، فاطر السماوات والأرضين، وكخليفة الله في الأرض، ووصفها الحديث النبوي بما يلي: «انما بُعثتم ميسّرين، ولم تُبعثوا معسّريـن»[١]، قد دلت كلمة «بعثتم» أن الأمة أسند اليها عمل، وكلّفت بتحقيق غاية، ونصبت لأجل تحقيق غرض كريم، ودلت كلمة «ميسّرين» أنها خلقت لكي توفر السهولة، لا لكي تخلق الصعوبة... الحكومة مسئولة عن ضياع وقف مهما كان ضئيلا، وسواءا كان الوقف عبارة عن مسجد، أو عن دار لليتامى والعجزة، أو عن عقار أو ما الى ذلك؟ فهي تستخدم جميع امكانياتها ووسائلها في سبيل الحفاظ عليه ومنعه من أن يقع عرضة للضياع والهدر... وذلك شيء تمرون به ليل نهار، ولكن يا لضياع هذا الوقف، فان القائمين عليه يتصرفون فيه كما يشاؤن، وأصبحوا ملاكاً له

١ـ سورة آل عمران ـ ١١٠.

٢ـ أخرجه البخاري في الوضوء والأدب والطهارة، وأحمد في المسند ج ٢ ص ٢٣٩.

بدون جدارة وبدون شرعية، وعلى الرغم من ذلك يقفون منه موقف الأعداء الحانقين، يعاملونه معاملة مقبرة ليس بها داع ولا مجيب، بل معاملة أشنع منها وقد « حوله الافرنج الى مواطن الميسرة والقمار » كما يقول الدكتور محمد اقبال رحمه الله

هل تستطيعون أن تصبروا وقد حوّل مسجد الى دار القمار، ولكن هذه الأرض التي قال فيها النبي الأعظم ﷺ : « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » حوّلها الأفرنج الى مخبىء القمار، وأنتم هادئون ساكتون.

أعتقد أن الذين حددوا للكلام هذا الموضوع الذي نتحدث حوله كانوا أذكياء بعيدي النظر، وقد أصابوا المحزّ، حيث لفتوا الأنظار من هذا الوقف الى الوقف الأعظم.

لو ألقيت نظرة على هذا العالم لوجدت أن الذين كان عليهم أن يكونوا بناة أصبحوا معاول الهدم، والذين كان عليهم أن يكونوا أمناء حارسين، أصبحوا لصوصا غاصبين وقطاعا شطارا ماكرين، والذين كان عليهم أن يرعوا ضروريات ساكنيه وأهله، وحوائجهم وعواطفهم، صاروا يصيدون في كل ماء عكر، وجعلوا يقيمون قصور تنعمهم على أنقاض أحلامهم وأطلال آمالهم، وعادوا يفكرون في الاطاحة بهذا العالم، ويحفرون قبوراً للأفراد بل للأقوام

والأمم والبلاد، بل للانسانية لكي يدفنوها للأبد.

انها لمؤامرة ضدّ الانسانية، مؤامرة ضد الأخلاق كما يقول اقبال، ومؤامرة ضد مصير الانسان ومستقبله، ولا ادري ما اذا كانت هذه مؤامرة ضد حاضر الانسان قبل مستقبله، ويومه قبل غده.

وحقا ان هذا الوقف عرضة للضياع والهدر، وحق لكل أفراد بني آدم أن يقوموا للدفاع عنه، ويحطموا أيدي الغاصبين والمعتدين عليه، وأن يقيموا عليه الدعوى.

أقيموا محكمة الاسلام

يحق لجميع الجنس البشري أن يقيم دعواه على ما يتعرض له هذا الوقف العظيم الكريم من معاملة قاسية ومن غصب ونهب، ومن اضاعة واهدار... انكم ترفعون قضيتكم الشخصية الى المحاكم العادية، الى المحاكم العليا، والى محكمة قاضي القضاء، فأين تقام الدعوة - يا ترى - ضدّ هذه المؤامرة الأليمة العالمية ضد الانسانية والنوع البشري؟، اسألوا الحقوقيين اسألوا المعنيين بالقضايا الانسانية، اسألوا العطوفين على الانسانية: أن تقام هذه الدعوى؟.

ان الذي عقّد الأمر، أن المدعى عليهم هم القضاة، واذا كان الأمر كذلك فماذا يرجى من النتيجة، وماذا ينتظر من العاقبة، ولماذا يرجى القضاء العادل والحكم الحقيقي

الحاسم؟... فلنقم أولاً تلك المحكمة التي ترفع اليها هذه القضية، وتقام فيها هذه الدعوى، وتلك المحكمة ستمتاز بميزتين بارزتين: الميزة الأولى هي العدل والانصاف، والميزة الثانية هي القوة والتمكين، لأنك اليوم لو تقدمت بقضيتك الى معنيّ بالانسانية، الى محب للخير الى عاقل نبيل مؤمن، يقضي فيها بقضائه، ويحكم فيها حكمه، ويبدي فيها رأيه، لكنه يكون لا يتمتع بالسلطة التي تمكنه من تنفيذ هذا القضاء، وامضاء هذا الحكم، فلا تجني منه فائدة ولا تعود منه بطائل...

ولا يملك اليوم بلد من البلاد الاسلامية أن يغيث الانسانية البائسة، بل لا يقدر أن يدافع عن الأخطار التي تدق بابه، ويطرد العدوان على نفسه وأبنائه.

ان مأساة المآسي اليوم أن الخيانة متحكمة في العالم البشري كله - الذي هو كوقف مقدس - أصبح يتحكم فيه قانون الغابات، يأكل القوى فيه الضعيف، وعاد كل انسان يرى كل شيء مباحاً له، بل سائغا حلوا، هنيئا مريئا، كلبان الام لدى الطفل الرضيع.

كان هذا السلوك مع الوقف المقدس، الذي أنشأه الله تبارك وتعالى بذلك الاهتمام العجيب الذي ذكره مرارا وتكرارا في كتابه العظيم، القرآن الكريم، والكتب الأخرى التي أنزلها على عباده المرسلين من قبل، وكان

يكفينا، لتقدير قيمة هذا الوقف المقدس تنويه الله سبحانه بشأن ذلك مرة واحدة، فكيف وهو يكثر من ذكره وتفصيل أوصافه وملامحه، ويذكر نوعية انشائه للأرض، وطريقة دحيه لها، ونصبه لخيمة السماء، ورفعه سقفها على طريقة هي أعجوبة العجائب، وأنه جعل الشمس سراجا وجعل القمر فيهن نورا وأنبت في الأرض جنات وزروعا من نبات شتى، وفجر الأنهار... الخ...

لماذا كل هذا التفصيل في الوصف؟.. لكي يدرك بنو آدم عظمة هذا الوقف ويضعوا في اعتبارهم قداسته. وذلك أنكم حينما تعلمون أن هناك وقفا له سجّل فيه تفاصيل مساحته وتحديده الجغرافي وأبنيته، وأن فيه - مثلا - مكتبة عظيمة تحتوي على عدد كذا من الكتب، حينما تعلمون كل ذلك تحسبون له ألف حساب، وتعيرونه كل اهتمام، فكذلك أراد الله جلّ وعلا أن يثبت في قلوبنا أهمية هذا الوقف الأعظم، حينما فصّل وصفه، وأكثر ذكره، وحدّد قسماته وملامحه، ولكن نراه اليوم يعاني معاملة قاسية، ففي ناحية تجري عملية هدم سافرة، وفي ناحية توجد الوسائل بأنواعها، ولا يعرف أصحابها الأهداف والغايات، لا يعرفون فيم يستخدمونها، وكيف يستعملونها ولأي غرض يسخرونها، وبأي طريق يحققون بها سعادة العالم البشري، ويخففون بها بعض ما يعانيه من آلام مبرحة، ويصلون بها فيما بين أفراد الجنس البشري ويقلّصون الفجوة

التي وقعت فيما بين قلوبهم، ويزيلون الاحن والحقد والعداء ويحلّون محله الحب والثقة والتعاطف، ويلقنون الانسان درس الانسانية.

المسيحية واليهودية عاجزتان عن التوجيه:

هذه الأغراض الشريفة لا يمكن تحققها الآ عن طريق الأنبياء، ولا يستطيع اليوم أن يحققها ديانة سوى الاسلام، أما المسيحية فهي عاجزة عن ذلك عجزاً كليا، لأنها تعاني الفراغ الهائل، فرغت جعبتها عن كل ما لديها من اثارة النور الالهي، وبقايا التعليم السماوي، فلا تقدر أن توجه أبناءها، وتحل عقدها ومشكلاتها، وتكبح جماحها وتحد من تطرفها، فضلا عن توجيه العالم، وقيادة الدول والأمم، لأنها مسيحية مشوهة تماما لا تمت بصلة ما الى المسيحية التي جاء بها المسيح عليه السلام.

أما اليهودية، فعهدها بالانحراف عريق في القدم، انها ليست الا عبارة عن طقوس وتقاليد وعنصرية، وتدور حول سلالة سيدنا يعقوب عليه السلام وأسباطه، ولا تبالي بسلالة انسانية أخرى ونوع بشري آخر، بل انها تخطط تدمير الأسر الانسانية، وتحطيمها خلقيا وسلوكا، يصارح أبناؤها أنهم يهدفون الى اشاعة الفاحشة والمنكر في أمم العالم، وأن يضربوا على جذور قيمها ومثلها، وأن يوقعوها

في الفوضى والقلق، ويجعلـونها مفلسة في الفكر والرأي والمعنوية، حتى تكون هي كقطع الشطرنج بأيديهم يديرونها كيف يشاؤن، وأن يجعلوها ذليلة مهانة حتى تستسلم لهم، وتخضع لارادتهم، وتكـون رهـن اشـارتهم... تلـك هـي اليهودية.

فلا رجاء اذن الا في الاسلام، فهو وحده يستطيع أن يوجه العالم، والعالم اليوم بأمس حاجة الى الاسلام لكي ينقذه من الأزمة الأخلاقية التي تهدد كيانه... لو عامل هؤلاء هذا العالم معاملة دار الأيتام، وظنوا أهله يتامى يحتاجون الى من يمسح دموعهم، لو وقفوا هذا الموقف، لرضيناه ولو على غصص ومضض، لرضينا لو وقفت أوربا من هذا العالم وأهله موقف الناس من اليتامى المنكوبين، فواسته مواساة الناس للفقراء والمساكين، وحدبت عليه ولو حدب اللئيم على اليتيم الكريم.

عاد العالم اليوم مكان قنص وصيد

ولكن ـ للأسف ـ لم يعد العالم دارا للأيتام أو العجزة والمساكين، بل تحول الى مصاد، تتدفق دفعات الصيادين من هنا وهناك ويصيدون الأمم والأقوام، ويدوسون الدول والبلاد... ان الأمم الشرقية والبلاد الاسلامية أصبحت كبقرة حلوب للقوى العظمى والدول الكبرى، ان قيمة البلاد الشرقية لدى الدول الكبرى تكمن في استيراد المواد

الخام (Raw Material) منها واستيراد البترول، اما الدول الشرقية أو الاسلامية فلا تنال منها مقابل ذلك كله الا مساعدة مزعومة لدى الحروب لمقاومة الأعداء، اذاً فانها كحطب لمطبخ الدول الكبرى أو كوقود لتنورها، ولا تحمل هي عندها قيمة أكثر من ذلك، قد رأيت كل ذلك وجرّبت عن كثب ومشاهدة، فقد زرت الشرق والغرب، كانت أوربا تدعو الدول الشرقية من قبل «دولا متخلفة» وبدأت اليوم تدعوها «الدول النامية» ومهما تغيرت في اطلاق الأسماء، فان المسميات عندها لم تختلف عن أنها كوقود توقد به مرقدها، وتشعل به نارها، لأنها تعلم أن مصائر الأمم الشرقية كلها بيدها، تقودها كما تشاء، وتظن انها قادرة على أن تعامل هاتي الأمم معاملة العجماوات والبهائم، بل معاملة الجمادات الصماء البكماء، ومن المؤسف جدا أنه ليس هنا كقوة تقف في وجهها، لأن الأمم كلها فقدت قوتها وتماسكها وتعودت الخنوع والاستسلام، ونسيت رسالتها وقيمها وتخلت عن سيرتها، وتجردت من سلوكها وانسحبت عن الميدان.

الأمر يتوقف اليوم كليا على الاسلام والمسلمين

ومن هنا فان الأمر يتوقف تماما على الاسلام وأبناء الاسلام، وتشتد حاجة البشرية اليهم كحاجة الذين وقعوا فريسة الحريق الى فريق الانقاذ والاسعاف ورجال المطافىء،

وذلك ما يضخم مسئوليتكم انتم ايها السادة! عليكم أن تتداركوا هذه البلاد، وتبذلوا عليها عنايتكم، وتصرفوا جهودكم الى اصلاح المجتمع، ان المجتمع في كل بلد اسلامي قد بلغ اليوم الى حالة أسوأ من التفسخ والانهيار، ويحتاج الى كل اسعاف طبيّ سريع، ان عيب المجتمع ليس في أنه عاد فاسد الأخلاق والسلوك، بل في أنه صار فاسد الطبيعة والعقلية، ان المجتمع لو وقع فريسة الفساد الخلقي، يمكن علاجه بآلاف الأدوية، ومآت الطرق، أما اذا فسدت طبيعته ونفسيته، فانه لا تؤثر فيه دواء، ولا تنفع فيه حيلة، ولا يغني فيه طبيب نطاسي...

ان مصلحة الأوقاف تستطيع أن تقوم بدور كبير في هذا الصدد بفضل امكانياتها، ووسائلها، تستطيع أن تقوم بعمل عملاق عن طريق خطباء المساجد وأئمتها الذين لهم اتصال مباشر بالشعب ولو بذلت مصلحة الأوقاف عنايتها على هؤلاء الأئمة والخطباء واستقطبت اهتمامهم الى جانب واحد: الى جانب اصلاح المجتمع وحده، دون تعرض للمسائل المختلف فيها التي من شأنها أن تثير الخلاف في صفوف المسلمين، وأن تشتت شملهم، لو صنعت ذلك لتكون قد قامت بعمل جليل جداً، ولخدمت العالم الاسلامي خدمة عظيمة، ولأنقذت هذه البلاد من كثير من الأخطار والويلات.

تعلمون أن محمد الفاتح لما غزا القسطنطينية وكانت

جيوشه تقتحمها وتتغلب عليها، كان أهلها متشاغلين في نوعية الخبز الذي تناوله سيدنا المسيح عليه السلام في العشاء الرباني، وجرت حول ذلك مناقشات حادة، وتقعير وتنقيب فلسفي، في تلك الساعة الحرجة التي كانت فيها جيوش محمد الفاتح تقتحم القسطنطينية... أخاف أن تدور هناك في بلادكم أمثال هذه المسائل الخلافية في وقت تغزو فيه بلادنا الحضارة «الفاتحة» والمدنية الفاتحة، ان الحضارة الغربية اليوم تتقدم اليوم فاتحة تقدما جنونياً، وتزعزع قيمنا ومثلنا، وتفكك عرى البلاد الاسلامية بما فيها بلادكم هذه، وتؤثر على المجتمع الاسلامي، وتعاني الحضارة الاسلامية الاحتضار والانهيار، وأصبح المسلمون فريسة الردة الفكرية والعقلية، في مثل هذه الساعة الحرجة يجري عندنا البحث في مسائل علم الغيب، وبشرية الرسول وملكيته، وعلمه للغيب، وما كان من المتوقع لدى العقول أن تثار أمثال هذه المسائل في مثل هذا الوقت الحساس، لكن الدهر حبلى ليس يدري ما يلد، في هذا العالم ما لا يكون في الحسبان، اذا فيمكن أيها السادة! أن نضيع قوانا العقلية والفكرية وذكاءنا ومواهبنا في أمثال هذه المسائل، في مثل هذا الوقت الدقيق... نرجوكم أن تدركوا هذه الأخطار، ان بلادكم واقفة على منعطف حساس، يجب عليكم الآن أن تركزوا عنايتكم على التراث الاسلامي، والاحتفاظ بأعز متاع في الدنيا والآخرة ألا وهو الدين والعقيدة والاسلام، اذا نجحتم

في الاحتفاظ بهذا المتاع العزيز الحبيب الأثير يأتي بعده دور هذه المسائل الفرعية والخلافات الجانبية، ان هذه الأبحاث يجب أن تكون رهينة المدارس والمعاهد العلمية والجهات العلميـة والدينيـة، يجب أن لا تتجـاوزهـا الى السـاحـة المكشوفة، قد قلت في مؤتمر عقدته جماعة ذات اتجاه خاص من الجماعات الاسلامية في الهند، ان الخلافات لا تزال قائمة بين المسلمين منـذ القـديم، ولا تـزال هنـاك خلافـات في أحكام الصلاة فيما بين المذاهب الأربعة وغيرها، لكنها لم تسبب الفوضى في داخل صفوف المسلمين قط في الماضي، وانما أثارت الفوضى حينما جعل العلماء والمثقفون يتعرضون لها على الشارع، وفيما بين الشعب ورجل الشارع، وتجاوزوا بها حدود المدارس والمعاهد العلمية، ان من الخطأ الفـاحش أن نتعرض لهذه المسائل في الأسواق وفي الشوارع وعلى مفترقات الطرق، وأن نحول الى نعرات وهتافات نستغلها لمصالح خاصة وأن نفوضها الى الجماهير، حتى تتسع فيما بينهم هوة الانفصال بدل أن يتقاربوا . . . ان البحث في هذه المسائل لم يزل منذ القديم، وظلت موضع النقاش والبحث، وهذا البحث والنقاش شحذ الأذهان وأضاف الى الثروة العلمية اضافات، وزاد الذكاء حدّة وقوة، ان من خصائص الانسان الحيّ أن يتباحث ويتناقش، ويتأمل ويتدبر، وأن يحاول الفهم والادراك والوصول الى الحقيقة، ولا يمكن أن يفرض حدّ على ذلك.

ان ذلك كله لا يضر أبداً الاّ اذا استغل لتحقيق الأغراض السياسية، أو الأغراض الحزبية أو الجماعية، أو لأثبات التفوق الذاتي على الآخرين، أو استخدم كدرع واقية للمصالح الذاتية، والشخصية، ان هذه المسائل فقهية أو كلاميـة علميـة، فلنقتصر بها على مكتبـاتنـا، وعلى مدارسنا، وعلى مجالس علمائنا ومتعلمينا، ولنتفاد بها مـن الدهماء، لأنها اذاً تزيد المجتمع فوضى وقلقاً واضطراباً، وتزيد صفوف المسلمين تشتتاً، لأن الأمة المسلمة انما جاءت لكي يصل الانسان بالانسان أيا كان فما بالك بالانسان المسلم.

القضايا التي تواجهنا ستقرر مصير الأمم والبلاد، فخذوا الحذر أما المسائل العلمية والأبحاث العلمية فلن يضع عاقل قيداً عليها، ولن يسد أحد في وجهها الأبواب، وسوف أعارض أنا - بصفتي طالباً للعلم - من اتجه هذا الاتجاه، لكني أرجو ألف مرة أن لا يستغل ذلك لتحقيق غرض سياسي أو حزبي أو جماعي، او لكسب الجاه والنفوذ، أو لاثبات التفوق الشخصي، ان الوقت يتطلبنا أن نخلص لله العهد لاصلاح المجتمع لكي تسلم البلاد من الردة الحضارية والمدنية.

مصلحـة الأوقـاف هـذه التي نحن مجتمعـون الآن في مكتبتها تستطيع أن تلعب دوراً هاما بل دوراً حاسما في هذا الشأن، لأن العلماء وأئمة المساجد وخطباءهـا لا يـزال لهم سلطـان على القلـوب، ولا تـزال قلـوب المسلمين مفعمـة

باحترام المساجد ومنابرها ومحاريبها، فاذا انطلق صوت من منابر المساجد ومحاريبها فسينفذ في النفوس، ويدخل في سويداء القلوب ويصل الى موطن سوف لن يصل اليه صوت قادتنا وزعمائنا السياسيين وحكامنا الاداريين، مهما حاولوا، فلنتق الله فيما يتصل بهذا الصوت واستخدامه ووضعه في غير موضعه.

ونشكركم أخيراً حيث وفرتم لي فرصة الحديث الى هذه النخبة الممتازة من العلماء والخطباء وأئمة المساجد والمخلصين من المسلمين.

المنهج التعليمي والتربوي، والقضايا العلمية والثقافية في البلاد والأقطار الإسلامية

المحاضرات التي ألقيت في الجامعات والمعاهد العلمية والثقافية

غايـة التّعليمّ وَالتربيـة في العَالم الإسلاميّ وَمنهَـاجـه

(ألقيت هذه الخطبة في جامعة كراتشي (باكستان) في ١٢/ يوليو ١٩٧٨م، وقد استمع اليها أساتذة الجامعة وطلابها، والمسئولين عنها بالاضافة الى عدد وجيه من خبراء التعليم والثقافة والاجتماع والسياسة والصحافة، والقادة والزعماء، والمسئولين عن المراكز التعليمية والثقافية وقدم المحاضر الدكتور احسان رشيد نائب رئيس الجامعة، وألقى الكلمة الختامية صاحب السعادة اسماعيل سعد أمين جامعة كراتشي).

العلم حقيقة

صاحب السعادة رئيس الجامعة، وأصحاب السعادة والفضيلة أساتذة الجامعة، وطُلاّبها وطالباتها، وأخوتي الاعزاء!

على الرغم من أنني لا اؤمن بتقسيم في العلم، وانني أعتقد

ان العلم وحدة لا تتجزأ ولا تقبل التوزيع والتصنيف، ولا يصح تقسيمه بين قديم وجديد وشرقي وغربي، وعملي ونظري، اني ارى - كما يرى الدكتور محمد اقبال - أن التوزيع بين القديم والجديد لا يقول به الا قاصرو النظر، ضيقو الفكر؛ بل انني لا اؤمن بتقسيم العلم الى ديني ودنيوي ايضاً، اني ارى ان العلم حقيقة او تجربة لا يملكها بلد دون بلد او أمة دون أمة، ولا ينبغي ان يكون كذلك، ولن يمكن ذلك، كما انني لا اؤمن بتحديد منابع اخرى في الحياة تحديداً جغرافياً، او سياسياً او عنصرياً، أو قومياً.

على كُلّ فاني اؤمن بأن العلم وحدة لا تتجزأ، وما يراه الناس كثرة أراه وحدة، ووحدية العلم هي صدقه، وواقعيته، وكونه حقيقة، وولوعه بالحقيقة ونشدان الصدق والواقعية.

على الرغم من ذلك كله اشكر صاحب السعادة رئيس الجامعة، والمسئولين عنها اذ اختاروا للتحدث الى هؤلاء الطلبة الاعزاء، والى هذه الازهار والبراعم الناعمة في حديقة الاسلام، رجلا يُنمى - عن فهم، وعن قصد او خطأ - الى منهاج التعليم القديم، ومن هنالك ارى لزاماً ان اعترف برحابة صدوركم وسعة أفقكم، وانفتاح انظاركم، حيث أنكم ما أبحتم هذا الفرق بين القديم والجديد الذي يراه قصار النظر من الناس.

اني لا اؤمن، لا في العلم ولا في الادب ولا في الشعر،

ولا في الفلسفة والحكمة، بأنه من تزيّا بزيه الخاص فهو العالم، او الاديب او الشاعر أو الفيلسوف والحكيم، وان من تخلى عن هذا الزيّ فليس يستحق الخطاب ولا يستحق الاهتمام والالتفات، فضلا عن الاستماع اليه، ومن سوء الحظ ان ذلك قد راج رواجاً كبيراً فيما يتصل بالادب والشعر، فيُتّهم بقلة الادب من يحضر ندوة علمية او ادبية او شعرية ولا يحمل « لافتة الادب »، ولا يتزيا بزيه الخاص، وأصبح الناس لا يغتفرون جريمة من لم يرتدوا زيّ الادب والشعر ولم يتمكنوا من الحصول عليه من « دكانه » من الادباء والشعراء الموهوبين الذين جبلوا على فطرة الادب وسليقة الشعر.

على كل فاني أرى أنها خطوة جريئة منكم أن دعوتموني لالقاء الكلمة في هذه الجامعة - على الرغم من أنني أؤمن بآفاقية العلم وشموله وحيويته ولا اراه ملكاً لاحد، او لجهة، أو لبلد، او لامة، فخزائن الله زاخرة، وهي مفتوحة لكل من كان مخلصاً في الطلب، صادقاً في العزم - انها بادرة تستحق التقليد، وأود أن تدعو مدارسنا القديمة رجال المدارس الجديدة والمثقفين العصريين، وأن توجه جامعاتنا ومدارسنا العصرية الدعوة الى اولئك العلماء والافاضل الذين اخلصوا في طلب العلم، ولم يقصروا في الاستفادة من التجارب الانسانية العظيمة، والانتاجات البشرية العلمية والادبية.

الغاية الاولى والاساسية من التعليم

أيها السادة! ان قلبي مفعم بعواطف الشكر، حيث أتيح لي فرصة لالقاء كلمة أمام هذه المجموعة الطيبة التي تشتمل على كثير ممن قد يلعبون غداً دوراً خطيراً لا فيما يتعلق بهذا البلد وحده، بل على مسرح العالم الاسلامي، وقد يمسكون زمام ادارة البلاد، او يتاح لهم ان يوجهوا توجيهاً تربوياً تعليمياً على الاقل.

وفقني الله ان اقرأ كثيراً وكثيراً فيما يتصل بالتعليم والتربية وغايتها المنشودة، والفائدة التي يجب ان تجنى منهما، لكني اكتفي بهذه المناسبة بتقديم شهادة واحدة فيما يتعلق بتعريف العلم وتحديد غرضه لخبير تعليمي بريطاني معروف (Sir Percy Neinn) من مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية:

«لقد سلك الناس مسالك مختلفة في التعريف بالتربية، ولكن الفكرة الاساسية التي تسيطر عليها جميعاً: أن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومُرَبُّـوه لانشاء الاجيال القادمة على أساس نظرية الحياة، التي يؤمنون بها، ان وظيفة المدرسة ان تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة، وتربّي التلميذ تربية تمكّن من الاحتفاظ بحياة الشعب، وتمد يدها الى الامام[1].

١- دائرة المعارف البريطانية، بند «التعليم» (EDUCATION).

ان هذا التعريف بالتعليم والتربية هو اروع واجمع واكثر تواطئاً مع العمل والتطبيق من بين جميع المحاولات التي بذلت في سبيل التعريف بالتعليم والثقافة.

ما هي غاية التربية؟ وماذا يراد من ورائها، ولماذا تبذل المواهب الفنية على التعليم، ولماذا تنفق قوى الامة بسخاء وعلى طريقة منظمة، ألكي يوجد التعليم فجوة بين الامة وبين ما تعتز به وتتبناه من معتقدات واغراض، وتراث حضاري وعلمي، وتصورات، وسواء أكان كل ذلك مما ينبغي الاعتزاز به ام لا، لكن الشيء الذي تحبه، والمعتقدات التي تعتز بها، والتصورات والقيم والمثل (Values) والعقائد (Conceptions) والافكار (Ideas) التي تتغنى بها والتراث الذي توارثته من آبائها وأسلافها، من وظيفة التعليم الاولى أن يربط بين الامة وبين هذه الاشياء، وينقل هذا التراث الى الاجيال القادمة، والنشء الجديد، ذلك التراث الذي افرغ عليه سلفها خير قواهم ومواهبهم، وبذلوا مدة طويلة من وقتهم، وربما قاتلت تلك الامة في سبيله وحاربت وجاهدت، وضحت بعزها وشرفها، ومجدها التليد، ومن الفضول ان نتعرض بهذه المناسبة لما اذا كانت القيم التي حاربت الامة من اجلها قيما صالحة ام لا، لكن مسئولية التعليم ان ينقل هذا التراث الى الاجيال المتلاحقة ولا يقتصر على النقل والتصدير فحسب، بل يعمّقه في القلوب والاذهان، ويجعل

القلوب والعقول تسيغه وتتذوقه، ولا يعود نابياً لديها او اجنبياً عندها، بل يعود مألوفاً لها ومحبوباً عندها ويصير طبيعة لها.

أمة محمد صلى الله عليه وسلم أمة ممتازة في خصائصها ومزاياها، وصياغتها وعناصر تركيبها

أرى أن هذا التعريف بالتربية بقلم خبير بريطاني تعريف جامع جداً، لكن اذا كان الامر أمر أمة عقائدها وقيمها ليست من عند نفسها، بل نابعة من الوحي الالهي، والكلام الالهي، والنبوة والرسالة، والعلم اليقيني الغيبي الازلي الذي لا يحول ولا يزول ولا يتغير قليلا او كثيراً، فهنالك تتضاعف المسئولية وتتضخم.

فاذا كان هناك تعليم يزعزع عقائد تلاميذه - من شعور أو من غير شعور، عن قصد أو عن غير قصد، عن خطأ أو عن خطة مدبرة - ويزعزع جذور قيمهم في قلوبهم، ويفكك عراها ويمزقها: ويثير في قلوبهم شكوكاً وشبهات لا تزول، وصراعاً نفسياً (MENTAL CONFLICT) ويتجاوز هذا الصراع الافراد الى الحياة الاجتماعية للامة، ويتحول الصراع الى حرب دامية شعواء بين تلك القيم والمفاهيم والتصورات والمعتقدات، والافكار والعقائد، وبين ذلك الجيل المثقف بذلك التعليم وتلك الثقافة. فالامر ادهى وأمرّ. ايها السادة! اني لا أؤمن

بالاسلام كتراث (LEGACY) ولا ارى ذلك تعريفاً رائعاً بالاسلام. ولذلك فاني لست معجباً بالكتب التي وضعت بعنوان: (LEGACY of ISLAM) و (HERITAGE of ISLAM) اني ارى الاسلام رسالة للحياة، لا اراه قادراً على مسايرة الزمان فحسب، بل اراه قائداً للزمان وموجهاً له، لا اراه رفيقاً للزمان في رحلة الحياة، بل أراه محاسباً للزمان ومراقباً له (GUARDIAN) فاذا كان هناك مثقف بالتعليم العالي يقع فريسة الشك والارتياب في جميع قيمه وتصوراته ومعتقداته، او يعود يراها دُمىً يسلي بها الصبيان والاطفال، أو اسطورة يتعلل بها السذج والجهال، او يصبح لا يتحمس لها، ولا يقاتل في سبيلها، ولا يدافع عنها، ولا يغامر من أجلها اذا مست الحاجة الى ذلك، اذا كان ذلك فان هذا التعليم عدو لدود لمن يحصّله يجب ان يفر منه فرار الانسان من الاسد بل أكثر من ذلك.

قضية البلاد الاسلامية أهم وأكبر خطراً

أيها السادة! وحين أتحدث اليكم في هذا الحفل الكريم، وفي رحاب هذه الجامعة الكريمة، وعلى جزء من ربوع باكستان، فاني أخاطب العالم الاسلامي كله، أخاطب تركيا، أخاطب مصر والشام والعراق، وأخاطب المملكة العربية السعودية التي انعقد فيها منذ شهور مؤتمر عالمي للتعليم الاسلامي (ALL WORLD ISLAMIC EDUCATION CONFERENCE) حضره من باكستان

الاستاذ احسان رشيد، وصاحب السعادة والمعالي اے ك بـروهـي (A.K. Barohi)، وحضرتُه أنا من الهند، وقد صرحـت عنـد ذاك - في المحـاضرة التي ألقيتهـا - أن الامر يصبح ذا خطورة وحساسية وتعقيد اذا كان يتعلق ببلـد اسلامـي، تعيش فيـه أمـة ذات شخصيـة (PERSONALITY) وذات خصـائـص ومميـزات، ذات دعوة ورسالة، ومكلفة بقيام دور فريد في العالم البشري، تنبع معتقداتها وقيمهـا ومثلهـا، وتصـوراتها وأفكـارهـا، ووجهات نظرها من الوحي الالهي، فاذا كان التعليم يحدث صراعاً في مثل هذا الجيل، ويجعله يخلع معتقداته وتصوراته العريقة بعد مايتخرج في جامعة عصرية، ويصبح وكأنه أمة جديدة او أمة أجنبية تبدو نابية قلقة فيما بين الشعب المسلم، ويحصل من ذلك كله تعقيد جديد، وتحدث مشكلة جديدة (PROBLEM) ويحدث صراع مرير - وقد يكون صراعاً دموياً - بين هذا الجيل المثقف وبين عائلته الاسلامية وآبائه وأمهاته، وبين المجتمع الذي هو عضو فيه، وبين تاريخه وتراثه، وقيمه ومآثر أسلافه، وبين منصبه ومكانته التي حباها الله اياه، وبين رسالة الاسلام والعمل الاسلامي، وآمال الامة الاسلامية وأحلامها، اذا كان كل ذلك، فأني لا ارى في هذا التعليم خيراً، ولا اراه خدمة للانسانية (SERVICE) بل انه سوء خدمة (DISSERVICE).

المسئولية الاولية لجامعة اسلامية في بلد اسلامي

ومعذرة اليكم فاني لا أشير الى جامعة بعينها، ولا الى المسئولين عن جامعة محددة، وانما أتعرض لامر مبدئي، وأريد أن أقرر أن المسئولية الاولى والاهم والاقدم لجامعة تقوم في بلد اسلامي، هي أن تؤكد ايمان الامة بالعقائد والافكار التي تؤمن بها، والحضارة التي تحتضنها، والدعوة والرسالة التي تتبناها، والخصائص والمزايا التي تحملها، حتى لا يعود هذا الايمان ايمان رجل عادي (LAYMAN) او ايمان رجل الشارع (MAN of STREET) بل يكون ايمان عالم، ايمان مثقف، ايمان دارس، ويطمئن عقله كما يطمئن قلبه، ولا يعود كما يقول الدكتور محمد اقبال «قلبه مؤمن وعقله كافر»، مشيراً الى فيلسوف غربي... واذا كان الصراع لا يجوز بين الفرد والجماعة، فانه كذلك لا يجوز بين القلب والعقل في حياة المرء الانفرادية، فاذا كانت هناك جامعة تُسبب هذا الصراع، أو يسببه منهاجها التعليمي ومنهجها العملي، ونظامها الاداري، وبيئتها العلمية، فذلك شؤم لا شؤم بعده للبلد الذي تقوم فيه الجامعة.

لا بد من اطمئنان القلب والعقل معاً

أيها السادة طلبتم مني أن أتحدث حول موضوع منهاج

الجامعات الاسلاميــة وغــايتهــا . . . ان الغــايــة الاســاسيــة للجامعات الاسلامية، أن توجد الايمان بتلك الاشياء التي اشرت اليها، الايمان الذي يأتي عن طريق العلم والثقافة والدراسة، وعن الشعور والتفكير، وعن طريق اقتناع العقل، وعن الدراسة المقارنة، واذا كان هناك رجــل انما يــؤمــن قلبه ولا يطمئن عقله، وهو يعلل عقله ويسليه، ويحاول ان لا يستيقظ عقله، كشأن الامم غير المسلمة العديدة التي ترى بقاء دياناتها ورقيها في عدم يقظة الشعور، وتحاول ان يظل اتباعها سادرين في سبات الغفلة، مسدوداً عليهم منفذ النور والهواء، ومن هنا وقع بين الكنيسة والعلم (CHURCH & SCIENCE) ذلك الصراع الدموي الذي تقرؤن قصته المؤلمة المفجعــة في كتــاب «الصراع بين الديــن والعلم» (CONFLICT BETWEEN RELIGION & SCIENCE) للعالم الامريكي المعــروف «درابــر» (JOHN WILLIAM DRAPER) وانما وقع هذا الصراع لان الكنيسة كانت ترى ان الخير كل الخير في تبلُّد الشعور الانساني بل كانت تعمل فعلا على تجميده وإماتته، وكانت تؤمن بأن من الخير والسعادة ان يكون الانسان محدود العلم قاصر المعرفة، بل عديم العلم جاهلا، وما دام الحال على هذا المنوال، كان الايمان بالكتاب المقدس راسخاً قوياً، وكانت المسيحية عميقة الجذور، بعيدة الغور في المجتمع، ذلك ان العهد العتيق كان يشتمل على كثير مما لا يؤيده العلم الحديث، بــل

ينفيه ويفنده، فكانت الكنيسة رأت من المصلحة أن لا يتيقظ شعور المسيحي، ولا يتفتح وعيه، ولا يتسع أفقه، ولا يتقدم العلم، فحاولت أن تقف في وجه العلم لانها ظنته عدواً لها لدوداً، وخصماً محارباً حانقاً، ولكنها اضطرت اخيراً ان تضع السلاح امام مدّ العلم وسيله الجارف، وتياره العنيف، لانه حاجة الانسانية، ومقتضاها الطبيعي، وعاطفة الانسان الداخلية، ونعمة الله الغالية، وضرورة العالم البشري، جعله الله لكي يخضرّ وينمو، ويورق ويثمر، لا لكي يذوي ويذبل ويموت، وهل تموت الحقائق؟ على كل فان العلم كسب المعركة، وذاقت الكنيسة هزيمة وعاراً وشناراً منقطع النظير، أمام العلم وتطلع الانسان اليه وطلبه الجامح له

وتلك هي قصة مشئومة وقعت في العالم المسيحي، ولكنها تركت آثارها على دنيا البشر كلها، وعلى جميع الديانات تقريباً، وقد جعلت الناس يفهمون انه لا يمكن أن يتقدم العلم والعقل معاً، وأن يساير الدين العلم، ولا بد هنا بصفتي دارساً للتاريخ، أن أعترف - مع الاسف - أن هذا التصور الخاطىء قد نال بعض نصيبه من المفعول في بعض الدول الاسلامية ولو لبعض الحين، لكنه ما لبث أن لقي حتفه، لانه يتنافى مع روح الاسلام وطبيعته، ولم يدم هذا الصراع المصطنع في العالم الاسلامي طويلاً، وذلك لأنه لم يكن وليد خطأ في داخل العالم الاسلامي، وانما كان قد نشأ

عن طريق اوربا المسيحية، ولكنه غاب وانقشع كسحابة صيف، او بسرعة أكثر منها .

مصير العلم مرتبط بالقلم

أرى ان من واجبات الجامعات الاسلامية ان تحاول ان لا تقع فجوة بين العلم والدين كما وقعت بينهما في العالم المسيحي، او في دنيا الديانات التي لم تكن فيها رابطة بين العلم والعقل، بل ان نشوءها كان مديناً للجهل، فقد تولدت وازدهرت بمعزل عن العلم والعقل بل على غفلة من العلم والعقل، ففيها مجال لنشوء الفجوة والجفوة بين العلم والدين وبين العلم والعقل، ولكن لا يتصور ذلك في الدين الذي أعلن دعوته منذ اليوم الاول بل منذ اللحظة الاولى بما يلي:

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم﴾[1] .

الدين الذي لم ينس هذا القلم المتواضع حتى في الحلقة الاولى من وحيه، ولم ينسه لدى هبوب النفحة الاولى من النفحات الربانية، لم ينس أن يؤكد ان مصير العلم مرتبط بالقلم، لم ينسه في خلوة غار حراء التي ارتادها نبي أمي يتلقى الرسالة الالهية لهداية البشرية، ذلك النبي الذي لا عهد

١- سورة العلق - ١، ٢، ٣، ٤، ٥ .

له بالقلم، ولم يعرف من ذي قبل كيف يحرك القلم، ولم يتعلم فن الكتابة والقراءة بتاتاً، شيء لن يجد الانسان نظيره في تاريخ العالم البشري، ولا يمكنه ان يتصور هذا المكان العالي، لا يمكنه ان يتصور ان ينزل وحي على نبي أمي بين أمة أمية في منطقة لم تعرف القراءة والكتابة معرفة تذكر، فضلاً عن المدارس والمعاهد ودور التعليم والجامعات، في الوقت الذي لاول مرة تم فيه اتصال السماء بالارض بعد مدة قرون، ولا يبتدىء هذا الوحي بكلمة «أعبد» ولا بكلمة «صَلِّ» او ما اليهما من الكلمات المتجانسة، وانما يبتدىء بكلمة «اقرأ» يخاطب المنزل عليه بالقراءة ولا عهد له بها، لكي يقرر ويؤكد له ان الأمة التي يكلف بهدايتها وتربيتها وتعليمها هي أمة ليست ولوعاً بالعلم فحسب، بل ستكون معلمة العالم، ومولعة بنشره وتصعيده وترقيته، والعهد الذي يقوم فيه بوظيفة الهداية والتبليغ والتربية والتعليم، انه ليس عهد الامية والوحشة والجهل، وعهد الظلمة والهدم والتخريب، وانما هو عهد العلم والعقل والتفكير، وعهد النظر والحكمة، وعهد البناء والتعمير، وعهد حب الانسانية، وعهد الرقي والتقدم.

كانت التجربة الفريدة الطريفة - لو صحَّ التعبير - في تاريخ الديانات وتاريخ العالم ان الوحي الاول الذي نزل على النبي الامي بين الامة الامية كانت بدايته بكلمة «اقرأ»، ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ كان من الخطأ الفادح ان

انقطعت صلة العلم بالرب، فحاد عن الصراط المستقيم، فجاء الوحي الالهي الذي نزل على النبي الامي يصله بالله، ويربطه بالرب تبارك وتعالى، حيث جاء ذكر العلم مقروناً باسم الرب، لكي يعلم البشر ضرورة بداية العلم، والتعليم والقراءة باسم الرب، الذي وهب هذه النعمة الغالية ومن بها على عباده وهو الذي خلقه، فلا يتقدم تقدماً متزناً الا تحت توجيهه وهدايته، ان الآية التي تتحدث عنها: انها ذات ثورة وانقلاب عظيم في التفكير والعقلية والنفسية، قرعت الآذان البشرية في بداية الاسلام، وكان ذلك شيئاً لم يخطر من أحد على بال ولم يتصوره في حال من الاحوال، لو سئل الادباء والحكماء والفلاسفة والعلماء في العالم البشري عن افتتاحية هذا الوحي الذي سينزل على النبي الامي، لم يكن أحد منهم ـ يعرف طبيعة تلك الامة التي نزل بينها الوحي، ويعرف عقليته ـ ليقول انه سيبتدىء بكلمة «اقرأ» كان لهم ان يتنبأوا بكل شيء ولكن لم يكن لهم ليتكهنوا أن الوحي سيكون استهلاله بكلمة «أقرأ» ثم انه لم يبتدىء بكلمة «العلم» وانما بالقراءة، والقراءة تتضمن الكتابة والقلم والورق بينما العلم قد يكون وهبياً لا يحتاج الى القلم والقراءة والكتابة والورق، مما دل على ان هذا العلم سيكون وليد القلم، وليد الورق، وليد الكتابة، وليد المكتبات والكتب والمؤلفات والصحف، وليد التجارب، وليد الذكاء ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ .

هذا الدين لن يفارق العلم

مما يجب الانتباه له أن الوحي الالهي أكد أن طبيعة هذا الدين أنه لن يفارق العلم لان الرسالة الاولى التي وجهته الى البشرية تأمر بالقراءة، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين لا يعرفون القراءة، والمسلم الذي قطع صلته عن العلم ليس بمسلم حقيقي، ولا يجوز له ان يدعي انه ممثل صحيح للاسلام، ثم يجب الانتباه لهذه الدعوة الثورية ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ كيف ينبه الوحي الالهي على أن تكون هذه الرحلة ـ رحلة العلم ـ في هداية هاد كامل وليس هو الا الله العليم الكريم، لان الرحلة طويلة شاقة معقدة خطرة، والطريق وعرة ذات منعطفات تعترضها بحار وأنهار ذات عمق سحيق، وتتخللها غابات كثيفة فيها سباع مخوفة، وحيات وعقارب سامة، وكل حيوان ضار.

لكنه ليس مجرد علم، ليس عبارة عن معرفة بالدُّمى واللُّعب، وليس عبارة عن التسلية، وليس مما يحرش فيما بين الانسان والانسان والامة والامة، وليس عبارة عن معرفة طرق ملء البطون، وعبارة عن تحريك اللسان ولوك الكلمات بل هو ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم﴾.

أفهل رفع من قيمة القلم أحد في التاريخ البشري أكثر من ذلك، حيث يذكر بهذه الاهمية، وبهذا التمهيد الكريم، في خلوة غار حراء، وفي الوحي الاول الذي ينزل من

السماء، ذلك القلم الذي ربما لم يكن بالامكان تواجده في بيت من بيوت مكة، لا أكاد ادري لئن رحتم تبحثون عنه رجعتم بفائدة أم لا، ربّما وجدتموه في بيت ورقة بن نوفل، أو أي رجل تعلم الكتابة في ديار العجم، القلم الذي ربما لا تجدون ذكره في دواوين الشعراء العرب الجاهلين المعاصرين مهما قلبتم الصفحات، وأعدتم القراءة.

عصارة كل علم وثقافة
«علَّم الانسان ما لم يعلم»

ثم دلَّ على حقيقة خالدة ذات انقلاب عظيم، وهي أن العلم لا حدَّ له ولا نهاية، فقال: ﴿علَّم الانسان ما لم يعلم﴾، وليس العلم الحديث (Science) الا انعكاسا لـ ﴿عَلّمَ الانسانَ مَا لم يَعْلَم﴾ وكذلك التكنولوجيا ليس الا مظهرا لـ ﴿عَلَّمَ الانسان ما لم يعلم﴾، وينزل الانسان على القمر، ولا يعني ذلك الا ﴿عَلَّم الانسان ما لم يعلّم﴾، ويغزو الفضاء ويقلص سعة العالم، ويطوي أرجاءه طيا، ويسخر أشعة الشمس - كما يقول الدكتور محمد اقبال - ويشق طريقه بين النجوم والكواكب ويحلم بالنزول بين السماكين، إنَّ كُلَّ ذلك ليس الا عبارة عن ﴿عَلَّمَ الانسان ما لم يعلم﴾ ...

على كل فان الأمة التي كان أساسها الأول على القراءة، وخاطبها الوحي الالهي الأول بذكر القلم، ان تلك الأمة لن

تفارق العلم والمعرفة، لأنها تلازمه ملازمة الظل أو ملازمة الغريم.

ثم يجب أن يكون في الاعتبار لدى اقامة كل مدرسة أو جامعة أو اتخاذ منهج تعليمي لتعليم هذه الأمة، أن يكون الهدف من كل ذلك ترسيخ الايمان بالعقائد والحقائق التي آمنت بها من ذي قبل، وأن يتأتى هذا الترسيخ عن طريق القلب والعقل معا، ولا يكفي اطمئنان القلب أو العقل فقط، لأنه حينئذ سيحدث صراع بينهما في الحياة الفردية للانسان، وسيتدرج هذا الصراع الى الحياة الجماعية... وعلى ذلك فيتخرج جيل يتصارع مع مجتمعه، ويتصارع مع دينه وعقيدته، وتضيع كل القوى في ازالة «الأنقاض»، فقد رأى بعض قادة بعض الأمم الاسلامية أنه يجب أوّلاً إزالة الأنقاض، وركزوا كل عنايتهم على ازالة الانقاض من العقائد والحقائق، واستنفذت هذه العملية كل قواهم، واستغرقت فرصة أعمارهم، ولم يتمكنوا من عرض دعوتهم، ونشر رسالتهم، وزرع أفكارهم التي كانوا بصدد نشرها.

فاذا كان هناك منهاج تعليمي يُعمّق ايمان الأمة بالعقائد والحقائق التي تحضنها فهو منهاج موفق، ولا سيما بالنسبة الى الانسان المسلم الذي جاء يحمل رسالة ويحتضن دعوة، فيجب أن يكون منهاجنا التعليمي والثقافي بحيث يرسخ الايمان في قلب المثقف، وقلب الدارس، وقلب الطالب الجامعي، وقلب الفيلسوف وقلب المفكر، ويجعلهم جميعا توفر لهم

عقولهم دلائل لذلك، ويستخدمون الثروة العلمية القديمة والجديدة المنتشرة على ظهر البسيطة في تحقيق هذا الغرض الأكبر لتقرير هذه الدعوى الكريمة... أيها السادة! إذا استطاعت جامعة أن تصنع ذلك فهي الجامعة التي تستحق أن تسمى جامعة، وأعتقد أن ذلك خير تعريف بجامعة ما.

العناية بتربية السيرة

والوظيفة الثانية للجامعات هي تربية السلوك والسيرة، فلتوجد الجامعات سيرة يربأ صاحبها عن أن يبيع ضميره بحفنة من شعير - كما يقول الدكتور محمد اقبال - إن الفلسفات والنظم المضادة للاسلام ترى أن انسان اليوم يمكن شراؤه في السوق بقيمة أو بأخرى، فان لم يرض بهذه الكمية من الثمن فسيرضى بكمية أكثر منها... وسرّ النجاح الحقيقي لجامعة ما أن تربي السيرة، فتخرج رجالا من المثقفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأي قيمة مهما كانت رفيعة غالية، ولا تستطيع فلسفة هادمة أو دعوة منحرفة، أو حكومة ذات سياسة خاطئة، أو قوة مدمرة، مهما كانت لبقة ذات دهاء، أن تشتريهم بأي ثمن غال، ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال أو بلسان الحال: «نرى العنقاء أكبر أن تصادا».

ويقول بلسان الدكتور محمد اقبال:

«ان حرية القلب هي سيادة وسلطان، أما العناية الزائدة

بالبطن فهي مدعاة للموت، والخيار بيديك، فاما هذا واما ذاك»، «يا أيها الطائر اللاهوتي: (يخاطب الانسان المسلم) اعلم أن الموت خير من القوت الذي يقصر جناحك ويمنعك من التحليق».

والمسئولية الثانية للجامعة الاسلامية أن تخرج شبابا يقفون حياتهم لخدمة الأمة، ويستعدون للتضحية والفداء، ينعمون بالجوع بما لا ينعمون بالشبع والري، والتنعم والتمتع بالحياة، ويطيبون نفسا بالحرمان، ما لا يطيبون بالوجدان، ويصرفون أوقاتهم وقواهم الخيرة، ومؤهلاتهم الفكرية والعلمية، والرصيد العلمي والفكري الذي زودتهم به جامعاتهم في رفع رأس الأمة عاليا، وفي اعلاء كلمة الله، وتعزيز البلد، وانقاذ الوطن، وفي صنع أمة ذات رسالة، وبناء بلد مسموع الكلمة مرهوب الجانب.

فهذان أمران لا بد منهما، الأمر الأول أن توفر الجامعات الاسلامية غذاءا يشبع العقل والقلب معا، وضوءاً ينير لهما الطريق في وقت واحد، حتى يتجها جنبا الى جنب وبتعاون متبادل (Co-operation) الى تعزيز الايمان بالحقائق والعقائد التي آمنت بها الأمة.

ولا بد أن يكون نصب أعينكم هو تخريج الرجال ذوي القدرات العالية، وأريد أن أصارحكم بهذه المناسبة أن قيمة بلد من البلاد ليست في كثرة جامعاتها ومعاهدها، انها نظرية بالية قد تقادم عهدها، وأصبح أصحابها يعرفون

بالرجعية وقصر النظر، بل القيمة في كثرة أبنائه الذين يقفون حياتهم للبحث والدراسة، ونشر العلم والثقافة، وتثقيف الأمة والشعب، ورفع معنويات أمتهم، وصنعها أمة ذات قلب وضمير أبيّ، وفي كثرة الشباب الذين ينقطعون الى خدمة الدين والعلم والأمة والبلد، ضاربين الشهرة الكاذبة، ورقيهم الشخصي عرض الحائط. وذلك هو المقياس الحقيقي الأصيل، الذي يقاس به البلد والأمة، وليكن هذا هو المقياس الوحيد في الشرق والغرب، فلا نقيم لبلد قيمة الا نظرا الى عدد الشباب الذين يتسامون عن لذائذ الحياة الرخيصة، والمناصب والجاه، والتقدم الشخصي، ويتوفرون على العمل الجاد البنّاء، وعلى العمل العلمي الايجابي النافع، على رفع مستوى الأمة عقليا وفكريا، على التوصل الى نظرية علمية ذات أهمية، على بحث علمي مضن يتطلب الصبر والتحمل على تعزيز البلاد من جميع النواحي.

تلك هي أهداف حقيقة يجب أن نصبو إليها، ونضعها في اعتبارنا، ونجعلها نصب أعيننا، أما مجرد التعليم والتثقيف، والتأهيل لشغل الوظائف والمناصب، فليس مما يثنى به على جامعة، وليس أبدا مما يجلب الحمد، ويستخرج الإعجاب، واني على يقين كامل أن رئيس هذه الجامعة الاسلامية والمشرفين عليها سوف لا يرضون بهذا الموقف، ولا يقبلون أن يكون هدف الجامعة مجرد تخريج شباب

مثقفين في كمية كبيرة، يشغلـون الوظـائـف الشـاغـرة في الادارات والمصالح والقطاعـات المختلفـة والمصـانـع، أو الدكاكين والمحال التجارية، ويموتون وهم أحياء يفقدون شخصيتهم العلمية.

الغرض الأصيل من العلم هو التوصل الى الايمان واليقين

يجب أن يكون هدف الجامعة ـ التي قامت في هذا العهد العصيب، وفي هذه البلاد المتأزمة ـ أن تعمل على إزالة الاضطراب والقلق الذي يسود جميع الدول الاسلامية منذ مائة عام تقريبا... تفككت عرى عقائدنا منذ بدأ الغزو الفكري والحضاري الغـربي، وحـدث صراع نفسي وفكري استنفذت مقاومته معظم القوى العقلية والفكرية والعلمية لدى الدعاة... ان ذلك لوضع غير طبيعي يجب أن يزول في أقـرب وقـت، لكـي تتـوجـه هـذه القـوى والقدرات الى الأهداف البناءة والى انقاذ البلد ودفع عجلته الى الأمام.

الحقيقة أن الأدب والشعر، والفنون الجميلة، والحكمة والفلسفة، والتأليف والتصنيف، ليس من وراء كل ذلك الا غرض واحد، وهو أن تتولد في صاحبه حياة جديدة، وايمان جديـد، وبـالتـالي في الأمـة التي هـو عضـو فيهـا والمجتمع الذي هو جزء منه.

وأود أن أنشد لكم أبياتا قالها الدكتور شاعر الاسلام محمد اقبال وهو يخاطب الأديب والشاعر، لأنه ينطبق على الوضع الذي نعيشه جميعا :

« يا أهل الذوق والنظر العميق! أنعم وأكرم بنظركم، ولكن أي قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر ولا في صوت مغن، اذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس، لا بارك الله في نسيم السحر اذا لم تستفد منه الحديقة الا الفتور والخمول والذوي والذبول » .

ان الأوضاع التي نمر بها نحتاج فيها الى أن نأتي بأعجوبة، وتلك الأعجوبة سوف لن تتحقق الا عن طريق الرسالة الاسلامية، لأنها وحدها التي تجعل حاملها يصنع المعجزات ويأتي بخوارق العادات، ويبطل المقاييس، ويحطم المعايير التقليدية، ويسخر من كل الموازين التي آمن بها العالم الجاهلي، يقول الدكتور محمد اقبال:

« أنا لا اعارض التذوق بالجمال والشعور به، فذلك أمر طبيعي، ولكن أي فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر، وذلك أن الأمم لا يرتفع شأنها ومكانها في خريطة العالم حتى تقدر على صنع المعجزات » .

ان باكستان اليوم تحتاج الى هذه القدرة على صنع الخوارق، والتأثير في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر

أو البحر، لأن باكستان تعود عليها مسئولية بعث الدول الاسلامية كلها بعثا جديدا، ان عليها أن تنفخ روحا جديدة في البلاد الاسلامية، وتوجد لديها اعتمادا جديدا، وايمانا جديدا، ونشاطا جديدا، وانتعاشا جديدا، وطموحا جديدا، وقلبا خفاقا جديدا يتحرق على بؤس الانسانية وشقائها، وشجاعة جديدة تبعث على المغامرة والاقتحام، وجرأة خلقية تستطيع بها أن تنفخ الحياة في هذه الأمم والأقوام المشرفة على الهلاك، التي تزل أقدامها، وترتعش أعصابها، وتخفق قلوبها، وتتعثر عقولها.

ومن هنالك فان مسئوليتكم مزدوجة، ان مسلمي شبه القارة الهندية يبذون مسلمي العالم الاسلامي كله بالنسبة الى عددهم، فتقدموا الى الأمام للقيادة الفكرية للعالم الاسلامي، واعملوا على ايجاد الثقة بالاسلام، وأكدوا عمليا أن الاسلام يتمشى مع عهد العلم والتكنولوجيا، وباكستان اليوم «معمل» سيقرر أن النظريات الاسلامية تستطيع بكل جدارة أن تساير الزمان.

وأخيراً أشكركم وأشكر رئيس الجامعة على استماعكم لحديثي في جو من الهدوء والجد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الصّراعُ النّفسيّ والقلَق الفكريّ
في البلاد الإسلاميّة وعوامِله

(القيت هذه المحاضرة في « جامعة العلامة محمد اقبال المفتوحة » (Open University allama IQBAL) في ١٨/ يوليو ١٩٧٨ م، واستمع اليها أساتذة الجامعة وطلابها، وأعيان المدينة، ورجالات العلم والثقافة والسياسة، وقضاة المحكمة العليا. قدم المحاضر صاحب السعادة الدكتور محمد صديق شبلي، وألقي الكلمة الختامية رئيس الجامعة صاحب السعادة الدكتور شيرزمان)

قال بعد الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

صاحب السعادة رئيس الجامعة، وأصحاب الفضيلة: أساتذة الجامعة، واخوتي الكرام! قد غمرني بزيارة هذه الجامعة والحضور فيها على دعوة منها ـ بحكم انتمائها الى

شخصية عظيمة عزيزة حبيبة - سرور ربما لم يحصل لي مثله لدى زيارة مؤسسة علمية، وكنت أفكر أن أبدأ حديثي بشطر بيت فارسي معناه:

« ان للغريب حق المقال »

لكنها اذا كانت تنتمي الى الدكتور محمد اقبال، فاني أستهل حديثي بشطر بيت أرديّ للشاعر الأرديّ الكبير الشهير « جكر » المراد آبادي:

« أستحق أن أجلس على أي فرع من فروع الحديقة وأنشيء عليه وكري، لأن لي حقا ثابتا على فصل الربيع كله » .

اذا كانت هذه حديقة « اقبال » فاني بلبل شاد من حديقتها، ولي حق التحليق في أجوائها، والتغريد في كل انحائها، والتمتع بكل أجزائها، ولست اذاً غريباً، بل كأني أحد سكان هذه المدينة .

اقبال قدوة لطلاب العلوم الغربية في الاحتفاظ بخصائصه الاسلامية مع خوضه في بحر علوم الغرب

أيها السادة: تعرفون جميعاً ما قاله الدكتور محمد اقبال حول التعليم والتربية، ورجائي من المسئولين عن الجامعة أن يضعوا آراء اقبال حول التعليم في مقرراتها الدراسية وأن يجعلوها مادة من المواد الدراسية، ولئن كان الكتّاب والعلماء

والمفكرون قد أفردوا كتباً في موضوع وجهة نظر اقبال عن التعليم والتربية وآرائه وأفكاره وملاحظاته على الموضوع، فاني أودّ أن تعيرها الجامعة بالغ اهتمامها، وأن تتناولها بالدراسة والبحث كفنّ مستقل وموضوع بذاته... لقد كان الدكتور محمد اقبال ـ كما صرّح بنفسه في أبياته الفارسية ـ من السعداء المعدودين الذين خاضوا بحر نظام التعليم الغربي الجديد فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط، بل محتفظين بشخصيتهم، وخصائصهم الابراهيمية، وازدادوا ايمانا بخلود الرسالة الاسلامية ومضمراتها الواسعة، يقول في شعره الفارسي:

«كسرت طلسم العصر الحاضر وأبطلت مكره، التقطت الحبّة، وأفلتُّ من شبكة الصياد، يشهد الله أني كنت في ذلك مقلداً لابراهيم، فقد خضت في هذه النار واثقاً بنفسي، وخرجت منها سليما محتفظاً بشخصيتي».

كان شباب الشرق يتوافدون الى أوربا، ولا سيما الى انكلترا، ولم تكن الرحلة الى أوربا أو الى انكلترا سهلة ميسورة كعصرنا هذا، فكان لا يحلم بهذه «الكرامة» الا الذين كانت تحالفهم سعادة الله الجدّ وحسن الحظ، وكانت الرحلة اليها تعتبر أعظم كرامة وأجل نعمة، كان الفائز بها محطّ أنظار الناس يشار اليه بالبنان ويقال: «انه لذو حظ عظيم».

بلغت سِنَّ الرشد والوعي حين وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارهـا، ورأيت «حركة الخلافة» عن كثب، وكانت للانكليز في البلاد دولة وصولة، وكانت البيوتات الارستقراطية ترى أعظم مفخرة أن يقوم أحد أبنائها برحلة تعليمية الى أوربا، وكان شباب شبه القارة الهندية لهم نصيب أوفر في هذه الرحلات بالنسبة الى مصر و الشام وغيرها من البلاد الشرقية... رحل الى أوربا خيرة الشباب في شبه القارة الهنـديـة الذيـن كـانـوا يمتـازون بمواهبهـم وذكـائهم، وتعلمـوا في جـامعـاتها، ولا سيما في جـامعـة «أكسفورد» وجامعة «كمبردج» . (Cambridge)

اقبال ومحمد علي جوهر من خريجي المدرسة الغربية لكنهما رمزان للصمود في وجه الغزو الحضاري الغربي

ويحق لنا نحن المسلمين الهنود أن نقدم في اعتزاز وافتخار شخصين عظيمين كمثال كريم للسعداء الذين تعلموا في أوربا، وعاشوا في محيطها الفاسد المفسد، ومجتمعها الفاسق الفاجر، الهادم للأخلاق والمروءة والعفاف، وعادوا منها، حانقين عليها ناقمين منها، ثائرين عليها، محتفظين بشخصيتهـم الاسلاميـة، وبثقتهـم بـالـذات، بـل داعين متحمسين الى الثقة بالذات، والاعتماد على النفس، ألا وهما الدكتور محمد اقبال، ومولانا محمد علي جوهر... ولئن كانت هناك أسماء كثيرة يمكن أن نقدمها في هذا الصدد

ولكني اكتفي بهذين الاسمين الكريمين اللذين لا يمكن أن يتحداهما أحد في هذا الجانب الخاص الذي نتحدث عنه .

حقا اننا لا نعرف رجلا مثل المرحوم مولانا محمد علي جوهر في ثورته على السياسة الغربية، كما لا نعرف رجلا مثل الدكتور محمد اقبال في ثورته على الحضارة الغربية، لا نعرف لهما مثلا في أي بلد من بلاد الشرق الاسلامية، أما الحقيقة والسرائر فلا يعلمها الا الله العليم الخبير الذي يعلم السرَّ واخفى، لكننا حينما نقرأ شعر اقبال، وكتابات محمد علي جوهر في صحيفتيه: « كامريد » (Comrade) و « همدرد » وحينما ندرس مواقفهما من الدين والعقيدة، ودورهما في خدمة الاسلام والعمل الاسلامي، ونرى محمد علي من خلال الدور الذي لعبه على مسرح حركة الخلافة ونقرأ خطاباته التي تتأجج بالغيرة الاسلامية والثورة العارمة على السياسة الانجليزية والغربية... لا نجد أحدا يعدلهما في ذلك ممن تخرجوا في جامعات أوربا وعاشوا في المجتمع الأوربي، وقضوا فيه مدة طويلة... وحق لاقبال أن ينشد:

« ما رأيت يوما أنحس وأشقى في حياتي من اليوم الذي جالست فيه أعيان الأفرنج وعقلاءهم »

ويقول: « رغم أن شتاء انجلترا كان قارسا جدا، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف، ولكني لم أترك في « لندن » التبكير في القيام » .

ذلك أن اقبال رأى الغرب عن كثب وسبر غورها، وعجم عودها، واطلع على مواضع الضعف والسقطة فيها، فاستفاد من ذلك كله... ومفخرة أي مفخرة لجامعتكم الكريمة هذه أنها تنتمي الى الدكتور محمد اقبال.

يا سادة! ان الوقت قصير لا يسمح بأن آتي على كل ما يجيش في خاطري ولكني أريد أن أطرح أمامكم قضية ذات أهمية قصوى، تستحق لفتة التفكير من جميع رجال الفكر والعلم من أولي التجارب الحكيمة الذين يخططون «الاستراتيجية» التعليمية لجامعاتنا ومعاهدنا العلمية.

ما هو مصدر الشقاء والاضطراب في العالم الاسلامي؟

انه لحديث عامين أو ثلاثة أعوام، كنت في زيارة بيروت، وكان هناك صديق لي من أهل العلم والذكاء، يجول بي في انحاء بيروت على سيارته لكي أشاهدها، فقال لي خلال الجولة: أستميحكم السؤال عن قضية هامة، وأريدك اجابة مقنعة... ان ما يموج في الدول الاسلامية من القلق الفكري والاضطراب السياسي والصراع النفسي، لماذا لا يوجد في غيرها، لماذا لا يوجد - مثلا - في الهند، واليابان، وسيلان؟ لماذا لا يوجد في الدول غير الاسلامية ما نعهده في الدول الاسلامية من جبهتين متعارضتين: جبهة الحكام والقادة وأولي الحل والعقد، وجبهة الشعب الساذج

الذي لا يعرف المكر والخداع، مما يسبب الانقلابات المتكررة، وتحوّل أزمة الحكومات من أيد الى أيد، وقد فقد الشعب ثقته بحكامه وقادته بتاتا، كما يعيش الحكام دائما في جوّ من سوء الظن وذعر من الشعب. والواقع أنني لم أستطع أن أعطي اجابة مشبعة على هذا السؤال الهام، وشغلت صاحبي بحديث وبآخر في الموضوع، لكن هذا السؤال قد أثار في نفسي تساؤلا لا عهد لي به: ورحت أتساءل في نفسي: لماذا هذا الواقع المرير، وما هو السبب في هذه الظاهرة المشئومة؟ ما هو العامل الحقيقي في هذا الاصطراع النفسي والتبلبل الفكري، نسمع كل يوم عن ظاهرة الصراع والصدام في الدولة الفلانية، ونتسامع بأن هناك تصارعاً فيما بين الحضارات، وفلسفات الأخلاق؟

وبعد تفكير هادىء توصلت الى الاجابة، وأريد بهذه المناسبة أن أعرضها عليكم لأنها قد تثير في قلوبكم وفي قلوب المسئولين عن هذه الجامعات شعوراً بضخامة المسئولية التي تعود عليكم.

ان الفلسفات التعليمية والتربوية التي استوردتها هذه البلاد غير الاسلامية ما كانت تتصادم مع قيمها ومعتقداتها، لأن هذه القيم أولاً كانت باردة ميتة، وثانياً انها كانت مرنة جدا، رقيقة مائعة جداً، تستجيب لكل فلسفة، وتخضع لكل نظرية، فها هو «جواهر لال نهرو» رئيس وزراء الهند الأسبق حينما سئل عن «الهندوكي» وتعريفه، فقال بعدما

أطال التفكير: «كل من ادعى أنه هندوكي فهو هندوكي»، وقد حكى لي صديق لي - وكان أستاذاً في كلية حكومية - قال: كنا جالسين في حجرة الأساتذة نتجاذب أطراف الأحاديث، اذ تطرق الحديث الى الديانة الهندوكية فقلت لصديق لي هندوكي - وكان بروفيسورا -: لو طلب منا أحد أن نوجز له تعريف الاسلام، لقلنا: انه الايمان بـ «لا اله الا الله محمد رسول الله»... واذا ما سألكم أحد أن توجزوا له التعريف بالهندوكية فماذا تقولون؟ - وقلت له لا أريد منك فلسفة متعمقة متعقدة، فلدي مكتبة أستطيع أن أطالع فلسفات الديانات وأوسع دراستي لنظرياتها ومعتقداتها، وانما اريد منك تعريفا بالهندوكية بكلمة موجزة - فقال بعد ما أجهد الفكر، يا أخي! الواقع أن الذي لا يعتقد في شيء فهو هندوكي، والذي يعتقد في كل شيء هندوكي كذلك.

الى هذا المبلغ يبلغ نظام عقائدهم من المرونة والميوعة، تنسجم مع كل فلسفة وتقبل كل نظرية مستوردة، ولا تتصارع معها في قليل أو كثير، ومن هنالك حينما غزا نظام التعليم الغربي الهند، لم يحدث قلقاً ما في المجتمع الهندوكي، اللهم الا بعض الهنادك المتزمتين الذين قد لا يعدو عددهم رؤوس الأصابع، كانوا يرون فيه معارضة خفيفة لأمور تافهة من معتقداتهم... وانما حدث القلق في المجتمع الاسلامي لأنه يؤمن بوحدانية الله جلّ وعلا، لديه مفهوم

معلوم محدد للتوحيد، لا يسمح بأن يخلص الانسان ولاءه في وقت واحد لديانات شتى، ويجمع بين الإشراك والتوحيد ثم لا يجمع بين الايمان بأن الغرب مرجع كل شيء، ومصدر كل تقدم وازدهار، وهي وحدها الجديرة بالامامة والسيادة والقيادة والوصاية، وبين الايمان بأن النبي الأعظم محمدا ﷺ هو هادي السبل وخاتم الرسل، وإمام الكل، لكل الأجيال البشرية في كل عصر... نعم لا يمكن له أن يؤمن بكل ذلك، ويؤمن - في ذات الوقت - بأن الحضارة الغربية هي منبع كل سعادة وخير، وأن العلم هو آخر ما وصل اليه الانسان من التقدم، وأنها نقطة الرقي الأخيرة التي لا يمكن أن يتعداها احد...

النور والظلام لا يجتمعان

على كل فلم لم يقع اضطراب ما في المجتمع الذي كان متميعا سيالا، رقيقا ناعما يتفاعل مع كل نظرية ويتلاحم مع كل غريب مستورد من الأفكار والفلسفات، والآراء والاتجاهات، والقيم والحضارات، ولم يحدث قلق في الدول التي لا تحمل نظاما ايجابيا أبيا، شامخا مستقلا، ولا تعرف طريق الرحمن من طريق الشيطان، و لا تلتزم بمبدأ، ولا تصرّ على حقيقة، ولا تفرق بين الضلالة والهداية «وماذا بعد الحق الا الضلال، فأنى تصرفون» يرى الاسلام أن النور فرد والظلمات لا حدّ لها ولا عدّ، ويلحّ على أنه هو

الحق وحده، وما سواه كفر وطغيان، وبغي وعدوان، والحاد وجاهلية، ويحدد الايمان والكفر، ويعيّن الخط الفاصل بينهما، ويصرّ على أنه يحمل حضارة خاصة، وليس هو مجرد عقائد معدودة وأحكام مرسومة.

فلما غزت الحضارة الغربية، المجتمع الاسلامي بكل ما عندها من تصورات وقيم وأغراض وأهداف، وقع بينها وبينه صدام وصراع شديد عنيف، وكان هذا الصراع طبيعيا... ثم حدثت كارثة أخرى، وهي أن الشباب الأذكياء من بيوتات الأغنياء والأسرياء والطبقة الارستقراطية في هذه البلاد الاسلامية، قد تثقفوا بالثقافة الغربية، وبقي الشعب على حاله، فنشأ من ذلك أن هذه الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية عادت لا تعرف ما يعيش فيه الشعب من عواطف وتصورات، وأمان وآمال، ومشاعر وأحاسيس، كما يكون شأن أمة جديدة بأمة أخرى جديدة ليس بينهما سالف تعارف ولا سابق لقاء... ومما زاد الطين بلّة والطنبور نغمة أن الطبقة العصرية شعرت شعوراً قوياً ملحاً - أو علمت بعد تجاربها «المريرة» - أنه لا بد - من أجل الابقاء على القيادة والزعامة وحتى من أجل أن تستطيع أن تعيش عيشة هدوء وسلام - لا بد من القضاء على ما يتحلى به الشعب من العواطف الدينية والغيرة الاسلامية - أو على الأقل - لا بد من توهينها الى حدّ يجعلها لا تقف حجر عثرة في طريق تحقيق أغراضهم الدينية.

فركزوا عنايتهم على القضاء على الحمية الدينيـة والغيرة الاسلامية والوعي والايمان، والذكاء الديني، في الشعب المسلم عن طريق الثقافة والصحـافـة ووسـائـل الإعلام، والشعـر والأدب، وهنالك خاضت قيادات هذه البلاد والأقطار الاسلامية معركة حامية مع الشعب، لأنها رأت سرّ حياتها ونموها، وازدهارها في اماتة الوعي الديني لدى الشعب، لأنها أدركت أن الشعب قد يكوّن جبهة متحدة لمحاربتها ويشكل العقبات في طريق مطامعها . . .

الوضع في العالم الاسلامي وضع متناقض
شعوب تغمرها روح الفداء للاسلام
وحكومات تؤمن بتفوق الغرب وعظمته:

أيها السادة! اني أحكي لكم قصة هذه البلاد الاسلامية قصة مصر والشام، وقصة العراق وتركيا، ولا أقول ان هذه القصة قد حدثت في كل بلد من البلاد الاسلامية، ولا قدر الله ذلك، ولا رماكم الله بهذه المصيبة، ولا تعرض فصولها على مسرح هذا البلد الكريم أبدا . . . لكنها على كل حال قصة الدول الاسلامية المتقدمة حيث نشأت طبقة لم تكن زاهدة في الدين فحسب، بل تنكرت له، واستوحشت منه وكانت تنعى على الشعب تمسكه بالشريعة وعضّه على جميع أجزائها وأحكامها بالنواجذ، وكانت ترى أنه اذا كان هناك أفراد في المجتمع يعاقرون الخمر، ويشاهدون

على الشاشة الصغيرة والكبيرة والتلفاز كل غث وسمين، ويقع بعض التحول في أخلاقهم وسلوكهم، أو يتأثر جانب من سيرة الصغار، فماذا يضرهم وأي شيء ينقصهم، وايّ خسارة تلحقهم؟...! ما لهم ولهذه القضايا، لهم أن يأكلوا ويتمتعوا، ويعيشوا وينعموا، ويكسبوا المعاش، ويحوزوا الثروة ويجربوا نصيبهم في الحياة وقد علّم هذه الطبقة أساتذتها من الغرب الذين تتلمذت عليهم والجامعات الأوربية التي تخرجت منها، أن الدين قضية شخصية، وخير لهذا الدين - اذا أراد البقاء والحياة - أن يظل على صفته هذه... قد تلقنت هذا الدرس من أساتذتها وأساغته اساغة كاملة واقتنعت به، فلما عادت الى بلادها هذه الشرقية وجدت أن أفراد الشعب يتدخلون في شئون الحكومة، وينتقدون القيادات، ويؤاخذونها، ويحسبون لكل شيء حسابا دقيقا، وحين يرون شيئا لا يوافق ما يعتقدونه يستشيطون غضبا، ويتّقدون حنقا...

الطبقة الحاكمة ترصد كل امكانياتها لقهر شعوبها وكبت عواطفها

لما شاهدت هذه الطبقة كل ذلك، ورأت أن أحلامها ستتبعثر، فتحت جبهة مستقلة لتوجيه الهجوم منها على الشعب، قد كان ذلك في مصر في عهد جمال عبد الناصر، فتوجهت القوى الرسمية بخيلها ورجلها وبكل أجهزتها ووسائلها وطاقاتها، لتصبّ الويلات على الشعب المصري

البريء، وحلّت القوات محلّ الشرطة ورصدت كل امكانيات مصر وثرواتها وخيراتها وقواها، وذكاء الطبقة الحاكمة لكبت عواطف الشعب التي كانت القيادة ترى أنها قد تكون كنار فيْ الهشيم لا تبقي ولا تذَر فتأتي على اليابس والأخضر من أمانيهم وأحلامهم. وعلى ذلك فعاش العهد الناصري في مصر في الجهاد في غير عدوّ، في محاربة الشعب الهادئ الوادع والقضاء على الحركات الاسلامية والمؤسسات الدينية، مكان محاربة الالحاد والشيوعية، ومحاربة اسرائيل والقوى الصهيونية، والى أي مدى تركت هذه «الحرب السلبية» مفعولها، وإلى أي حد استطاع «ناصر» أن يحرز النجاح في مقصده، لا يمكن الحديث عنه بالتحديد والضبط، ولكن هذه الحرب هي التي استنفدت كل وقته وجهده ورصيد فكره.

وهذه الحرب نفسها قائمة اليوم في كُلٍّ من الشام، وليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، لا تختلف معركة اليوم عن معركة الأمس في النوعية، نعم انها حامية في مكان وهادئة في مكان آخر، ولن أسمّي لكم بلداً غير عربي، فقد كفتني في ذلك البلاد العربية، وليكن ملحوظاً أن هذه المعركة «المصطنعة» هي من صنائع الفلسفتين المتنافستين المتقابلتين، والنظامين الممتازين للتعليم والتربية، فان التعليم الذي يتلقاه طلاّبنا وأفلاذ أكبادنا في المدارس الدينية يمحوه ـ كحرف مكرر أو كلمة خاطئة ـ ذلك النظام الغربي للتعليم.

ما فات فرعون تداركه قادة التربية الغربيون:

ومن هنالك لما اقتحم النظام الغربي التعليمي شبه القارة الهندية، اثر نفوذ الانجليز وسيطرتهم السياسية على الهند غير المنقسمة، قال السيد أكبر حسين الشاعر الأردي العظيم بيته الخالد السائر الذي لم يقل أحد بيتا أدق منه في التنديد بنظام التعليم الغربي الالحادي، والدلالة على فعله البعيد المدى، لا أعرف نثرا أو نظما يعبّر هذا التعبير البليغ، البارع الدقيق، الرائع العميق عن نظام التعليم اللاديني، وبهذه الكلمات البسيطة الخفيفة، يقول أكبر:

«لو فتح فرعون كُلّية في مصر (أراد بها نظام التعليم الغربي)... لم يكن هدف الملام والتهم من بني اسرائيل، فقد كان مستغنياً بذلك عن قتل أطفالهم جسديا، ولكن المسكين لم يتفطن لهذه النكتة».

ان «اكبر» يشير الى حقيقة كبيرة، انه يقول:

ان فرعون بغباوته وبلاهة ذهنه، وقلة عقله، جرّ عليه هذه اللعنات، وخلق له هذه المشكلات، ومهّد الطريق لدعايات غير متناهية ضده، حتى صار رمزاً للظلم والوحشية وقساوة القلب وسجّل له الصحف السماوية صفحات سوداء من استكبار وافساد واستعلاء، ولو أنه غيّر نظام التعليم لكفاه عن التقتيل والتشريد ولكسب سمعة طيبة، ولعدّ المربي الجليل الأكبر، ووليّ العلم والثقافة، ولأسست باسمه جامعات

ومجامع علمية.

يا سادة! قد بدأ هذا الصراع ـ الذي نتحدث عنه ـ في المملكة العربية السعودية ايضاً، بفعل هذا النظام التعليمي الغربي اللاديني... وكل دولة تريد ان تخدم الاسلام، وتعلي كلمته، يجب عليهـا أولا ان تتجنب هذا الصراع النفسي الخبيث، لانه يستهلك كل القوى العقلية والفكرية، وكل نصيب من الذكاء والقدرة، ولا يدع هذه القوى والطاقات، والمواهب والقدرات، تقبل على تعمير البلاد، وتدعيمها وصيانتها من القلق والاضطراب واللاأمـن، وتعود كل طبقة تفكر ان تتغلب هي وحدها، وأن يكون المسيطر على البلاد والمقبول المتداول في ارجائها، ما لديها من فلسفة الاخلاق وفلسفة الحياة، او فلسفة ما بعد الطبيعة ليس الا...

التعليم العصري حامض
يذيب الشخصية ويكونها من جديد

واني أتوقع من هذه الجامعة المؤقرة انها ستخطو هذه الخطوة الاصلاحية قبل أي جامعة اخرى، لانها تنتمي الى ذلك المفكر الاسلامي العظيم الذي كان عظيم الكراهية لهذا النظام التعليمي الغربي العصري، شديد المقت له، كثير التنديد به، وكان كثير الخوف من تطبيقه في الاقطار الاسلامية، وأعتقد أنه لو كان بقيد الحياة لركز اولاً على

تغيير النظام التعليمي الحالي، لانه كان يرى ان نظام التعليم الحديث هو «كحامض» يذيب شخصية الانسان، يقول في ابياته:

«ان التعليم هو «الحامض» الذي يذيب شخصية الكائن الحيّ، ثم يكونها كما يشاء، ان هذا «الحامض» هو اشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية ،هو الذي يستطيع ان يحوّل جبلا شامخاً الى كومة تراب».

الشخصية الاسلامية لن تتكون الا بنظام تعليمي يتطابق مع طبيعة الشعوب الاسلامية وعقيدتها

انعقدت ندوة علمية في عمّان في عام ١٩٧٣ م كان يديرها الاستاذ محمد ابراهيم شقره، وشاركها كاتب هذه السطور وسعادة الاستاذ احمد محمد جمال، ومعالي الاستاذ كامل الشريف وكان الحوار الذي يجري في هذه الندوة تذيعه محطات الاذاعة، وقد وجه اليّ السؤال عن سبب الحيرة المردية التي يعيشها العالم الاسلامي كله بصفة عامة والشباب المسلم بصفة خاصة.

فقلت فيما بعد:

«من اعظم أسباب الحيرة التي يعانيها الشباب المسلم اليوم هو التناقض في المجتمع الذي يعيش فيه، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه، وبين ما يلقنونـه تلقيناً وبين ما يطلبه علماء الدين، هذا التناقض العجيب الذي سلّط عليهم،

ومنوا به، هو السر في هذه الحيرة المردية... هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد في بيت اسلامي، في اسرة اسلامية، ونشأ على كثير من العقائد وتلقاها بوعي او بغير وعي، ثم انه نشأ في بيئة دينية تؤمن بمبادىء الاسلام، وقرأ التاريخ الاسلامي - اذا أكرمه الله بذلك، وتسنت له هذه الفرصة الكريمة - وكان سعيداً بوجوده في بيئة واعية دينية، ثم سيق - ومعذرتي على اختيار هذه الكلمة، لانه لا يزال في سن مبكرة وليس له خيار - الى دور ثقافة يسمع فيها من اولئك الاساتذة الذين يجلهم - كل ما ينقص ما أبرمته البيئة، وكل ما غرسته في قلبه وعقله من التربية الاسلامية، او يقلل قيمته على الاقل فيقع في تناقض عجيب، وصراع فكري عنيف وفي ارتباك نفسي، (CONFUSION).

انه يتلقى هذا الصراع من مؤسسة الاعلام، ومن التلفزيون ويسمع اذاعات وأحاديث وبرامج تقضي على البقية الباقية من آثار التربية القديمة، ومن الصحافة التي هي «صاحبة الجلالة» تقدم اليهم في أول النهار الغذاء الفاسد العفن والمواد المثيرة المهيجة للعواطف... انه يقع في ايديهم كتب علمية من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم فيرون ما يشككهم في الدين.

ان مثل ذلك أيها السادة! كمثل عجلة او مركبة ركب فيها فرس في الامام وفرس في الوراء، وكلاهما قويان،

فكما أن هذه العجلة من المعقول جداً ان يكون رُكّابُها في حيرة من أمرهم، هذا يجرُّها الى الامام، وهذا يجرها الى الوراء، فكذلك الشباب يتـأرجحـون في أرجـوحـة يمينـاً وشمالا ».

لا بد من تضييق الفجوة بين رغبات الشعوب الاسلامية، واجهزة التربية والسياسة

وحلّ هذه المشكلة هو ازالة هذا « التناقض » الذي يعبّر عنه لسان الشريعة ولسان القرآن بكلمة « النفاق » وان ذلك يحتاج الى قلب نظام التربية والاعلام ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام، والتلفزيون ـ الذي جاء حديثاً ـ رأساً على عقب، ويحتاج الى ثورة عارمة دقيقة شاملة، والى أناس عندهم الاصالة الفكرية، والى الاجتهاد في المواد الدراسية، ويحتاج الى ان تتبنى هذه القضية الحكومات الاسلامية الكبيرة، والى ملء الفجوة بين الكهول والشباب، وبين الدعاة الى الدين والشباب الجامعيين، ويحتاج الى مكتبة جديدة، واسلوب جديد في الحديث مع الشباب .

أيها السادة!

أختم حديثي بهذه الكلمات، وأوجه شكري وتقديري لصاحب السعادة رئيس هذه الجامعة، وصاحب السعادة رئيس القضاة أفضل جيمه اللذين وفرا لي فرصة الحديث الى هذه المجموعة الكريمة ... واني على يقين كامل بأنكم مهما تنسون

كلمتي هذه، فأنكم لن تنسون رسالة « اقبال » ويحلو لي ان يكون بعض ابيات اقبال هو مسك الختام لحديثي هذا :

« حيّا الله شبيبتك يا مربي الجيل الجديد! ألق عليهم درس التواضع وهضم النفس، مع الاعتزاز بالنفس، والاعتداد بالشخصية، علمهم كيف يشقّون الصخور، ويدكّون الجبال، فان الغرب لم يعلمهم الا صنع الزجاج، ان عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم وأوهنت قلوبهم، فانظر كيف تعيد الثقة الى نفوسهم وتجارب الفوضى الفكرية » .

الأرضُ الخصْبَة التي تُنْبِتُ الزّروعَ والثِّمارَ وتُنجِبُ العبَاقِرةَ والرّجَالْ

(ألقيت هذه المحاضرة في ٢٣/يوليو ١٩٧٨ م بجامعة الزراعة « AGRICULTURE UNIVERSITY » بفيصل آباد، واستمع اليها كبار المسؤلين عن الجامعة وأساتذتها وطلابها، بالاضافة الى أعيان المدينة ووجهائها، وعدد وجيه من رجال العلم والفكر والمثقفين، وقد تحدث المحاضر الى الطلاب العرب في الجامعة على طلب منهم باللغة العربية في نفس الموضوع).

المقياس الحقيقي لعظمة البلد

قال بعد ما حمد ربه، وصلّى على نبيه الكريم وسلم:

أصحاب السعادة والفضيلة، أساتذة هذه الجامعة، واخوتي الطلبة والمستمعون الكرام!

يسرني جداً ويسعدني أني وفقت للحضور والقاء الحديث في هذه الجامعة المؤقرة، الجليلة في وظيفتها وبخصائصها،

فشكري وتقديري للمسئولين عن الجامعة على هذه الحفاوة والوفادة .

يا سادة! ان البلد لا تقاس عظمته بكثرة الجامعات التي تقوم في رحابه ولا يقوّم بخصبة اراضيه وقوة اغلالها وكثرة انتاجها، وحسن انباتها، او بكمية كبيرة من اصحاب الملايين وأولي الثراء والرخاء، والترف والسرف او بارتفاع مستوى المعيشة في أهله، بل المقياس الحقيقي الذي يقاس به بلد، وتقدر به قيمته، هو نسبة وجود ذوق العلم وروح البحث الذي يتصف به رجال العلم والبحث من ابنائه، ونسبة عدد الجامعات ومراكز العلم والثقافة التي تقوم على هذا الاساس، وتحقق هذا الغرض، فلو كان هناك بلد يزخر بأنواع النعم والخيرات، ويحفل بالذخائر الطبيعية للثروات الهائلة وتدرّ أرضه وسماؤه عسلا ولبناً، وبكل نوع من الوسائل والامكانيات، ولكن ينقصه الذوق الصحيح للعلم العميق والبحث الدقيق، والدراسة والتحقيق، ولا يوجد فيه - في كمية وجيهة - اولئك الذين وقفوا حياتهم على العلم، وانقطعوا الى الدراسة المضنية الجادة، المثمرة المنتجة، مستغنين عن كل اشادة وتحبيذ، راغبين في رضا الله (وهو جوهر المقصود لدى المؤمن) ساعين في سبيل ترقية البلاد، وتقديمها الى الرخاء والنمو والازدهار، لا يدفعهم الى ذلك طمع في جائزة رسمية او في وسام التقدير والاعتراف من مؤسسة . يجدون في التعب والعناء لذة لا يجدونها في الراحة

والجمام، يرون في التعطل والبطالة تعذيباً لروحهم، وخنقاً لمواهبهم، ويرون فيمن يحول بينهم وبين العمل العلمي، الجاد المضني، ألد واحنق عدوّ لهم، لانه قد أصبح لهم بمنزلة الماء للسمك والغذاء للجسم، بل بمنزلة الروح للجسد.

ترنحت جوانحي حينما زرت هذه الجامعة

وقد خامرني سرور بالغ حينما رأيت ان هناك جامعة زراعة راقية، يؤمها الطلاب والمعنيون بالموضوع من خارج البلاد أيضاً، ولا سيما شباب العرب، وتأكدوا اني لم اكن لاشعر بهذه الفرحة الغامرة - التي شعرت بها عند زيارة هذه المؤسسة العلمية العزيزة - بزيارة متحف مهما كان عظيماً وراقياً، او استضافتي في بلاط رسمي عظيم مهما توفرت فيه وسائل الحفاوة والاكرام ...

انفقوا خير مواهبكم في تعمير هذه البلاد

وأرجو أن الشباب الذين ينهلون اليوم من هذا المنهل الكريم سوف يبذلون خير ما يتمتعون به من مواهب وصلاحيات في صالح هذه البلاد، ويفضلون خدمة الوطن على المرتّبات العالية والمناصب السامية والجاه العريض في اوربا او الولايات المتحدة الامريكية، التي اصبحت من سوء الحظ كعبة الطامحين الى المادة والمعدة، قد رأيت بعيني رأسي لدى زيارتي لامريكا وكندا (CANADA) ان خيرة

شباب الشرق - الذين يتمتعون بمواهب غنية والذين كان بوسعهم أن يغنوا بلادهم ويجعلوها تدر لبناً وعسلا، وتفيض بكل نوع من الثروات والخيرات لو ركّزوا بعض عنايتهم عليها - قد اختاروا مجال العمل والنشاط في خارج بلادهم، ومهما كانت لهم في ذلك بعض المكاسب، فان فيه خسارة كبيرة وضرراً فادحاً بمصالح بلادهم، حيث هاجروها الى بلاد الاجانب بل الاعداء بعد ما بلغوا طور العمل والانتاج في حين كانت هي بامس حاجة الى صلاحياتهم، وعلى ذلك فأصبحوا يخدمون الاجانب ويثرون بلادهم بنتائج أعمالهم وثمرات قوتهم العلمية والعقلية والفكرية ... ولذلك ارجو اخواننا شباب هذا البلد، والشباب العربي - وأظن أنهم يفهمون حديثي، فربما قد تعلّموا الاردية بطول مكثهم هنا - أنهم سيضعون بلادهم في عين الاعتبار وسيرونها هي المستحق الوحيد لمواهبهم وذكائهم ودراستهم ونتائج تفكيرهم... ومن المؤسف جداً بل وبلاهة العقل، وفقدان الغيرة على الدين والوطن، أن نضع مواهبنا في خدمة البلاد التي استعبدت الدول الاسلامية، ان الدول الاسلامية كلها اليوم خاضعة لأمريكا أو روسيا - مباشرة أو غير مباشرة - لا في مجال السياسة والاقتصاد وحدهما، ولكن فيما يتعلق بمجال العلم والثقافة والفن أيضا، فلو صرف شبابنا مواهبهم في صالح بلادهم وحدها، لاستطاعوا أن يكسبوها شيئا كثيرا من الغناء

والاكتفاء الذاتي، ولاستطاعوا أن ينالوا - بهذا الطريق - جزاءا موفورا وعطاء غير منقوص من ربهم وخالقهم.

الفلسفات والنظريات والبحوث العلمية لا يزال لها سلطان على النفوس والعقول

ان لي في هؤلاء الشباب رجاءً كبيرا، آمل أنهم سيقفون ببحوثهم العلمية ودراستهم الموسعة العميقة الشاملة وطموحهم العلمي، في وجه تلك البلاد التي تغزو قلوب المسلمين عن طريق العلم والثقافة والدراسة، انه قد ولّى العصر الذي كانت تستعبد فيه دولة دولة، فاذا كانت هناك دولة تحلم بذلك، فانها تعيش في عالم الأساطير والأوهام، ولكن الغزو العلمي والفكري ضدّ الاسلام ظل قائما على امتداد التاريخ، وسيظل.

لقد مضى على الاسلام حين من الدهر، قد هجمت عليه الفلسفة الاغريقية بكل ما عندها من رصيد الحيوية والفتوة والنشاط، فقام لها رجال من أبناء الاسلام - الذين كانوا قد سبروا أغوارها، وخاضوا في أعماقها وعجموا عودها - فجعلوه هباءً منثورا، أمثال الأئمة، الغزالي والباقلاني، وشيخ الاسلام ابن تيمية، والرازي وغيرهم.

ثم جاء دور غزو الاستعمار الغربي للاسلام عن طريق التاريخ، وعم في طول العالم وعرضه الرأي القائل بأن مكتبة الاسكندرية أحرقها المسلمون، وقد قدّمته أوربا كحقيقة

تاريخية مقررة، فخضع له كل مثقف وكل دارس، وكلّ من كان يكابر فيه أو يشك أو يراه موضع جدال ونقاش، كان هدف التهم، وموضع الملام ويعيّر بالجهل وبالبلاهة، وقد وقف العالم الاسلامي كله مسحورا مبهورا أمام هذا الرأي، وبدأ الناس يقولون: أنّي للمسلمين أن يكونوا رائدي العلم والثقافة وعاملين في سبيل انعاشه وتصعيده، فقد بلغوا من محاربتهم للعلم أنهم قد أحرقوا مكتبة الاسكندرية بأمر خليفتهم عمر بن الخطاب، لأنهم رأوا أن هذه المكتبة لو كان ما فيها من علم وفن مطابقا للوحي الالهي والحديث النبوي، فلنا غناء في كتاب الله وسنة رسول الله، فلا حاجة الى غيرهما، وأما اذا كان معارضا لهما فليكن رمادا تذروه الرياح في مكان سحيق...

وكان ذلك نقع قد أثاره الكتّاب والمؤلفون المسيحيون في أوربا شفاء لبعض ما في صدورهم من البغضاء البغيضة للاسلام... وكان العلامة المؤرخ شبلي النعماني أول من قام في شبه القارة الهندية لتفنيد هذا الزعم الباطل، فعرّاه وفضحه في قارعة الطريق، وأثبت بدلائل علمية لامعة، أن مكتبة الاسكندرية قد سبق احراقها خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودخول المسلمين في مصر، وجلّى للعالم أن هذا الفعل الشنيع قد قام به المسيحيون المتعصبون... وكذلك كانت هناك آراء وأفكار خاطئة روّجها أعداء الاسلام عن طريق التاريخ لكي ينالوا من الاسلام

وأهله، فلم يرجعوا بطائل، وقد جعل الله كيدهم في نحورهم فمثلا قالوا: ان الجزية في الاسلام تقوم على أساس ظالم، وقد كشف العلامة النعماني اللثام عن الحقيقة في هذا الصدد في رسالة مستقلة أسماها «الجزية وحقوق الذميين».

العلم لا يتوقف ركبه على مرحلة

حينما توجهت الضربات على الاسلام عن طريق السياسة والاقتصاد، وما اليهما، برز في الميدان الأساتذة الكبار والعلماء الأجلاّء في شبه القارة الهندية وحاسبوا هذه الفلسفات الخرافية محاسبة علمية، ووقفوا قدرتهم الكتابية على هذا الجهاد المشرف، لكن العلم - أيها السادة - لا يتوقف على منزل، انه يتصف باستمرارية، ورقي دائم، وتطور قائم، لا يعرف الكَلَّ ولا السآمة، فلا يمكن أحدا أن يقول: انه وصل الى النقطة الأخيرة، أو المرحلة النهائية، لأن ذلك يعني الجهل بمكانة العلم ومركزه السامي.

فمن واجبكم اليوم أن تبطلوا النظريات الخاطئة التي تهاجم الاسلام عن طريق علم الزراعة، والتي تتصادم مع القرآن الكريم وتعاليمه، وأن تقرروا حقّية أمور كثيرة كشف القرآن الكريم عنها لأول مرة، ولا أعلم أحدا سبق القرآن في الاشارة الى تلك الحقائق، مثلا يدعى القرآن بزوجية كل شيء - وقد دخل في «شيء» النكرة طبعا الزراعة والنباتات والأشجار - اذاً فمن وظيفة أمثالكم أن

تؤكدوا صدق هـذه الدعـوى، وتبرزوا مـن خلال ذلـك اعجاز القرآن، وبالتالي اعجاز النبي الأمي العربي ﷺ، وهناك حقيقة عجيبة جلّاها القرآن الكريم في سورة الرعد تجدر بالدراسة المستقلة، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا، ومن كل الثمرات، جعل فيها زوجين اثنين، يغشي الليل النهار، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفي الأرض قطع متجاورات وجنّات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان، يُسقَى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، ان في ذلك لآيات لقوم يعلقون﴾[1].

وأرجـو أن جامعتكم المؤقرة هذه ستقوم بهذه الدراسة خير قيام وتقدم نتائجها الى دنيا الناس.

يا ليته تم هذا العمل المشرف الجليل في الدول الاسلامية

ان نظرية دروين (DARWIN) للنشوء والارتقاء قد تركت ـ كما تعلمون ـ هزّة عنيفة لا في الأوساط العلمية بل في الأوساط الدينية أيضا، قد كانت لهذه النظرية صولة وجولة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حتى كان الناس يرون أن التجـرّؤ على المحاسبة العلمية لهذه النظرية، يعني الجهل وقلة العقل، فخضع لها أناس كثيرون

---

١ - سورة الرعد ـ ٣، ٤.

في الشرق والغرب، وعاد كثير من الناس يرون أنه ليس هناك أي تصادم بين ما يراه القرآن وبين هذه النظرية، وبدؤوا يطبقون بينهما على أساس كون نظرية النشوء والارتقاء وتنازع الأصلح للبقاء هي الأصل فأوّلوا الآيات القرآنية تأويلا باردا، وحمّلوها من المعاني والمفاهيم ما لا تحتمل... غير أنها أخيرا انهارت، ولم يبق لها من السلطان ما كان في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بفضل الدراسات العلمية التي تمت في أوربا، ويا ليتها قد قامت بها البلاد والأقطار الاسلامية، يا ليتها قد قامت بها مصر، والعراق والشام والهند، ولكنه مع الأسف ان الأفاضل العرب انما كان موضع اهتمامهم التاريخ أو الأدب فقط، وما بذلوا عنايتهم على العلوم التجريبية من العلم (SCIENCES) والكيمياء (CHEMISTRY) والفيزياء (PHYSICS) الا قليلا جدا، ومن ثم فلم ينبغ عبر البلاد الاسلامية رجل، يبتكر نظرية علميّة أو يسلم له الأوساط العلمية بالسبق والفضل في أي مجال، أو يكون محطّ أنظار وموضع اعجاب في المحافل الدولية والمجالس العلمية العالمية.

أحرزوا جائزة نوبل

أيها الشباب، اخوتي الطلبة الأعزاء! اجتهدوا أنتم في مجال علم الزراعة (AGRICULTURE) وأحرزوا فيه قصب السبق، حتى تستطيعوا أن تبتكروا نظرية جديدة

ذات قيمة تستأهلكم لجائزة نوبل (NOBEL PRIZE)... أنتم لا تستطيعون أن تقدروا مدى السرور الذي سيغمر الشباب الاسلامي، ومدى التشجيع وهزّة الافتخار التي يشعرون بها اذا ما يتسامعون بمسلم ينال جائزة نوبل مقابل عمل علمي تحقيقي، يا سادة! اني - على الرغم من أنني أنتمي الى طبقة علماء الدين - أترقب ذلك اليوم السعيد الذي يستحق فيه أحد من أبناء الدول الاسلامية جائزة نوبل في داخلها، على عمل عملاق قام به في مجال الزراعة، لأن ذلك شيء سيبعث الأمل والطموح في الشباب المسلمين، وهذا ما لا يلام عليه أحد، انه لا يتصل بالسياسة، ولا يتعلق بما يحطّ من شأن أمة أو دين، ولا تعارضه حكومة، ولا تعترض عليه دولة... اني ألفت أنظار الفتية المسلمين في كل أنحاء الأرض ولا سيما في البلاد والأقطار الاسلامية، الى ذلك، وأستقطب اهتمامهم الى أن يقوموا بعمل عظيم ذي أصالة (ORIGINALITY) وثورة تسترعي انتباه العالم ويجعله يؤخذ به، ويعترف بأن في المسلمين من يتمتع بالمؤهلات العقلية وقدرة الابتكار والانتاج، والعبقرية (GENIUS) والذكاء العجيب...

الارض الخصبة في قلوب الامة الاسلامية

أنتم أفلاذ أكباد المسلمين والبراعم الناعمة التي لم تتفتح بعد، تقومون بدراسة هذه الارض، ومدى صلاحيتها للانبات والانتاج والاغلال، ونوعية جدارتها وتجانسها لنوع

من الحبوب والزروع وكيف يمكن تضعيف الحاصلات، وتنمية قوة الانبات، وما الى ذلك، أريد أن ألفت انظاركم الى أرض غير هـــذه الارض، قلما حظيـــت مـــن البلاد الاسلامية باهتمام وعنـايـة، ألا وهـي ارض قلـوب أمتنـا الاسلامية، انها ذات ثروات زاخرة، وخزائن ثرّة، وقوى وطاقات مكنونة لا يعلم مداها الا الله، ومن الواجب ان نعرف قدرها، ونبرزها، ونستخدمها، ونهيء لها فرصة العمل والتأثير ... ان زعماءنا السياسيين وقادتنا القوميين ما أعاروها عناية منهم، ولم يدركوا - بعد - مدى عاطفة الحب والحنان، وقوة الدين والايمان، وروح التضحية والفداء والايثار والوفاء، والاخلاص والولاء، والحماس والسذاجة، والتقشف والجلادة، التي تمتاز بها هذه الامة التي يقودنها .

يا سادة! أفلا تستحق هذه الارض القلبية القيمة ان تقام لها جامعات تقوم بـدراستهـا، والبحـث عـن مضمـراتها، ومكنوناتها، وأبعادها وأعماقها، وما تخفيه من خزائن لا تنتهي وأن تكشف وسائل ايقاظها وانمائها، وحرثها وحرسها ... تأكدوا انه لو تم هذا العمل، لاتى بانقلاب عظيم في العالم يندهش أمامه كل من على فوق البسيطة .

انكم لا تستطيعون أن تقوموا بهذا الانقلاب العظيم في الاخلاق والسلوك ووضعية العالم، وأن تنفعوا العالم نفعاً حقيقياً عن طريق أي عمل بمثل ما تستطيعون بهذه العملية،

واني بهذه المناسبة أبثُّ شكواي ـ من خلال انشاد بيت من بيوت اقبال ـ لا الى ايران وحدها، بل الى شبه القارة الهندية هذه والى العالم الاسلامي كله.

«لم ينهض رومي[1] آخر من ربوع العجم، مع أن أرض ايران لا تزال على طبيعتها، ولا تزال «تبريز[2]» كما كانت».

وأسلي قلبي وأعزّي نفسي، وابشّركم وأرجيكم بقوله:

«الا ان اقبال ليس قانطاً من تربته، فاذا سقيت بالدموع أنبتت نباتاً حسناً، وأتت بحاصل كبير».

الارض المخصبة المنتجة للزروع والمنجبة للرجال

يا سادة! قد متعكم الله بباكستان، تلك التي أراضيها مخصبة، وابناؤها ذوو أهليات منتجة، وعقول مبتكرة، وقلوب عامرة زاخرة ثرّة.

وتلك هي حال جميع أراضي البلاد الآسيوية التي توافد منها هؤلاء النجباء من الاخوة التلاميذ، انها حال العراق التي تقع في وادي دجلة والفرات، وحال السودان التي هي

---

١ - اشارة الى مولانا محمد جلال الدين الرومي (٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ).

٢ - مدينة في ايران، نهض منها شمس الدين التبريزي، شيخ الرومي في التزكية والتربية الروحية.

منبع النيل، وانتم تعرفون مدى خصبها وقوتها للاغلال، ولكنكم ـ أسفاً ـ لا تعرفون تهيؤها لانجاب الرجال، ومن هنا توجهت العناية الى الاستغلال واستنتاج الحاصلات والأموال، ولكنها ما توجهت الى استنجاب العباقرة والرجال، والعظماء والابطال.

أنتم اليوم تلاميذ في هذه الجامعة، جامعة الزراعة في فيصل آباد، وربما تكونوا غداً وزراء زراعة في بلادكم، ان العهد عهد الديموقراطية، وعهد الثورة والانقلاب، فمن الممكن جداً أن يكون بعضكم وزير زراعة، او قائداً سياسياً، او زعيماً لحزب من الاحزاب، او رئيس جمهورية، فأريد ان احمّلكم رسالة وهي أن لا تفوتنكم العناية باستنجاب الرجال بجانب استغلال الاراضي ... ألفتوا أنظار المواطنين في بلادكم أن المواهب الغنية التي حباها الله الامة الاسلامية، حرمتها الامم الاوربية والامريكية كلها، انها لا تتمتع بعشر معشار الاخلاص والسذاجة والايثار الذي يتميز به المسلمون في كل مكان، وليس عليكم أيها القادة والسادة! الا ان تستغلوا هذا الاخلاص، وهيئوا المناخ لنموّ روح الاخلاص الذي يلتقي به المسلم مع المسلم، وعاطفة الحب والحنان، والايمان بالحديث والقرآن، التي تحرك ساكن قلوبهم أكثر من اي شيء آخر في الحياة، اذا فعلتم ذلك فسيكون بلدكم بلد العباقرة والابطال، وبلد الثورة والانقلاب، وبلد الربيع والازهار، ويندهش أمام

خصبه العالم كله .

وبهذه الكلمة أنهي حديثي شاكراً لمن وجهوا اليّ الدعوة للحضور والزيارة، ولالقاء الكلمة في هذه الجامعة، متمنّياً من الله للجامعة كل رقي وازدهار وعز وافتخار، وشرف واعتبار، لا بالنسبة الى باكستان، ولكن بالنسبة الى العالم الاسلامي كله .

إنّما الشّبابُ
هُمْ أولئكَ الذيْن يَقْتَنِصُونَ النّجُومَ

(ألقيت هذه المحاضرة في ٢٥/ يوليو ١٩٧٨ م بجامعة بنجاب بمدينة لاهور، وكان هذا المخيّم في مخيّم جمعية الطلبة الاسلامية التربوي قد ضم خيرة الطلاب في مختلف الكليات المنبثة في ولاية بنجاب، والمسئولين عن المخيّم).

بعد الحمد والصلاة:

اخوتي الأعزاء! قد شعرت بوجودي بينكم، وحضوري في مجلسكم هذا بسرور، لا يشعر به الا العامل في مجال الدعوة الاسلامية، أو المدارس، والأستاذ في مدرسة اسلامية، الذي استهلك مهجه في بناء الشباب الاسلامي وعلى تربية البراعيم في حديقة الاسلام، ويتمنى أن لو أتيح له أن يقر عينيه برؤية شباب وصفه الدكتور محمد اقبال في بيته البليغ:

«اني انما أحب الشباب الذين يقتنصون النجوم

والكواكب » .

وانما طبت نفسا بهؤلاء الشباب الكرام لأني أرى فيهم خيرا كبيرا ، أرى أنهم سوف يقفون حياتهم لخدمة الاسلام ولإعلاء كلمة الله ، ويلتزمون الصراط المستقيم .

الصراط المستقيم في دقّته وحدّته كالصراط الذي يواجهه الجن والبشر يوم القيامة

الصراط المستقيم ـ أيها السادة! ـ قد يتحول الى « الصراط » الذي هو أحدُّ من السيف وأدقُّ من الشَّعر، فالحمد لله الذي اختارنا لهذا العمل العظيم، وأراد أن يكرمنا بنعمه وأن يشملنا بآلائه عن طريق هذا « الصراط » ... وقد جاء في الحديث الشريف أنه ـ حينما يكرم العبد المؤمن بالجزاء الأوفى والثواب المستوفى من ربه الكريم الرحيم على ما لاقاه من الشدائد في سبيله في الدنيا ـ يتمنى كل من يشهد هذا المشهد أن لو وفق الى معاناة أمثال هذه المشاق، وقطعت جلودهم بالمقاريض، ونشرت رؤسهم بالمناشير ... فلنحمد الله عز وجل على أنه جعلنا موضع اهتمامه، وانتقانا من بين عباده، لكي يغطّينا بجميل كرمه .

وقد جربتم ـ يا اخوتي التلاميذ ـ أنه اذا كان هناك طالب مجدّ وصل الليل بالنهار، وعاش في مراجعة المواد الدراسية واستظهارها ، واستوفى ظمأ اجتهاده في الدراسة،

ثم حضر قاعة الامتحان، ففاجأته أسئلة سهلة لا تحتاج الاجابة عليها الى اجتهاد واجهاد، فيقلّب كفّيه، ويتحسر على سوء حظه، لأنه يرى في ذلك ضياعا لجهده، واستهانة بقيمة سهره ليل نهار، ويتمنى أن لو علم بحيلة من ذي قبل أن الأسئلة ستكون بهذه المكانة من السهولة، أما اذا استقبلته أسئلة صعبة تتطلب اعمال الجهد والفكر، والامعان والتقليب فيرى كأنه استوفى قيمة جهده.

ان التسهيلات تسبب العقبات في طريق الحياة

ومن فتور الهمة أن نشكو صعوبة الحياة، وأن نقول: نحن نعيش في عصر متأزّم، ونسير في طريق مفروش بالأشواك، ومن بعد الهمة والطموح أن يشكو الانسان السهولة، ويظن في نفسه كأنه، حُطّ من شأنه، وغضّ من مكانه، ولم ير أهلا لمواجهة الشدائد، ومنازعة العقبات، ومصارعة الجنادل والصخور... ولو حفلت الحياة بالسهولة، لغابت لذتها، وفقد رواؤها، ولقد صدق الشاعر الأردي الذي قال:

«اني أمضي في طريق حياتي أهزؤ بالشدائد المتموّجة والمشاق المتلاطمة ولو كانت الحياة كلها سهولة، لكانت كلاّ وعبئاً ثقيلا لا يطاق».

ربكم يخاطبكم

يا سادة! قد تلوت عليكم آية من سورة الكهف، وثبت

الى لسـاني عفـوا ، ﴿ إنهم فتيـة آمنـوا بـربهم وزدنـاهــم هدى﴾[1] ، و « الفتيـة » جمع فتى ، وهـو الشبـاب الحدث الناهض ، يقول الله تبارك وتعالى : ان هؤلاء الشباب الطيبين الطاهرين أحكموا إيمانهم بالله وأوثقوا رباطهم مع ربهم ، فلما أتموا هذه المرحلة الأولى من عند أنفسهم ، زدناهم نحن هدى ، وقوّينا قلوبهم ، وربطنا عليها .

ان الآية الكريمة تحدد مسئوليتنا نحن ، وتشير اشارات كبيرة الى أنه اذا ما قمنا بما يجب علينا الى حدّ مستطاع فهنالك يأتي نصر الله ، وتستقبلنا رحمته ... وهذا المعنى تؤكده كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة : ﴿ويــزدكم قــوة الى قــوتكـــم﴾[2] ،﴿ان تنصروا الله ينصركم﴾[3] ،﴿يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾[4] ،وقد شكوا الى النبي ﷺ قلة الماء ، وكان له ﷺ ان يتضرع الى الله ويستمطره رأسا ، لكنه لم يصنع ذلك ، بل دعا بالبقية الباقية من الماء ، فوضع فيه اصبعه فاذا به يفور فورانا ، وقد شكي اليه قلة الغذاء ، فاستدعى بما بقي من ثمالة الطعام ، وتجمّع لديه شيء من التمر اليابس ، وكسرة الخبز البائتة ، وشيء من الشعير ، وما اليه من الطعام ، فدعا الله عز وجل وتمسّح به بيده المباركة ، فزاد زيادة ملموسة ، حتى كفى

١- سورة الكهف - ١٣ .
٢- سورة هود - ٥٣ .
٣- سورة محمد - ٧ .
٤- سورة البقرة - ٤٠ .

الجيش كله، وقد كان له أن يدعـو الله تبارك وتعالى كسيدنا عيسى عليه السلام: ﴿ربنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾، لكنه ﷺ انما لم يصنع ذلك لأن أمته كانت مكلّفة باعمال مواهبها الذاتية، وقوتها الارادية وعزيمتها الشخصية، قد كتب عليها الله أن تمر بمراحل الحياة المتنوعة، وأن تواجه من وضعيّة الدعوة والزمان ما لم تواجهـه أمة قبلها، فلم يمكنها أن تجلس ضائعة عاطلة، وأن لا تحرك يديها، ولا تمشي برجلها، ولا تفكر بعقلها، ولا تستخدم ساعد ولا تحك جلدها بظفرها.

ومن ثم ألقى عليها هذا الدرس الحكيم، وقيل لها تقدمي بما عندك نزده من عندنا، وقد تجلّت هذه الحكمة الدقيقة العميقة في بعض ما ظهر على يديه ﷺ من المعجزات، فواجه بثلاث مائة وثلاثـة عشر نفـرا (وهـم عـزل عـن الوسائل المادية) جحافل الكفار في ميدان بدر، وقد كان له غناء في أن يردّ الكفار بقوته المعنوية ويهزمهم بدعائه المستجاب، وأن يقذف عليهم الحصى المقروء عليها، وأن ينفثهم بالآيات القرآنية، لكنه لم يجرب هذه الوسائل، بل قطع مسافة شاسعة، مسافة ٧٠ ـ ٨٠ ميلا، ونزل ببدر، وصفف جيشه كعادة القواد في الحرب في عصره... فلنع هذا الدرس، ولنكن على ذكر منه دائما.

كانت القضية قضية الربوبية

كانت الحكومة قد أحكمت قبضها على مواد التموين،

وعلى كل وسائل الحياة والاقتصاد، فما كان أحد من الشعب يفوز منها بشيء الا الذي كانت تتكرم عليه الحكومة بعطفها، وهي التي كانت توزع الوظائف كما تشاء، وتوزع الثروة كما تشاء وتتصرف في وسائل الحياة كما تشاء، كأنها صارت «ربّا صناعيا»... فيقول الله تبارك وتعالى ًكان هناك فتية طموحون قد نهضوا وأعلنوا كفرهم بربوبيتها وأفردوا الله بالربوبية، وأخلصوا له العبودية، وقالوا بملء أفواههم في نشوة واعتزاز لن نخضع الا لله الواحد القهار، لأنه هو الذي يربينا، ويرزقنا، وهو الذي يهيء لنا وسائل الحياة، وطريق المعاش، وهو الذي يعزّ ويذلّ، فينصر من يشاء ويخذل من يشاء، ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء.

فلما عبروا هذه المرحلة في كل توفيق ونجاح، زادهم الله هدى... وقد دلّت الآية أن الهداية مصدرها واحد، وهو الله الأحد الصمد، ولا يمكن أحدا أن يكسب الهداية بذكائه، او قوته الفكرية والعقلية، او عن دراسته وكتاباته، او عن طريق خوضه في المكتبات وسيل المعلومات، فقد نسب الله تعالى الهداية الى نفسه واختار صيغة المجموع في الخطاب كالعظماء والسلاطين... على كل فان هؤلاء الفتية الموفّقين، السعداء الصالحين، قد بلغوا الى هذه الذروة السامقة بلفتة حانية من ربهم الكريم، وما استحقوها الا بعد ما أسلموا وجوههم له، وانقطعوا اليه، وكفروا بكل الأرباب، وضربوا معبودية كل الآلهة الكاذبة عرض

الحائط، واجتهدوا في معرفة الله وحده، وتعمقوا في معرفة صفاته اسامية، وأسمائه الحسنى، وأعملوا في ذلك جهدهم وفكرهم...

طموح الشباب وفعّاليتهم

وقد حدث ذلك عندما نزحت النصرانية لأول مرة من سيناء مركزها الأصيل الى روما، التي كانت تحكمها حكومة وثنية متزمتة، لما وصل اليها هؤلاء الفتية الدعاة بدأ الشباب يتأثرون بدعوتهم، ويدلّنا التاريخ على أن الشباب في كثير من الأحيان كانوا هم السابقين الأولين في الاساغة لدعوة، والتأثر بفكرة، لأن الشيوخ والكهول ربما يكونون مثقلين بأعباء وأحمال وقيود وأغلال، أغلال التقاليد والأعراف، وأغلال العلاقات والصلات بالبلاد والشعب، وأغلال القيم العائلية، فكل ذلك يقف حجرة عثرة في طريقهم الى منزل آخر، وعبورهم الى شاطىء الصواب، وذلك مثل من يكون مشدودا بالأحجار، أو يحمل الأمتعة والعروض لا يمكنه أن يسبح في الماء أو يعبر الى الشطّ، في السهولة التي يعبر بها الرجل الأعزل الخفيف.

أما الشباب فلا تمنعهم جنادل وصخور تعترض طريقهم من التوصل الى المنزل بفضل فتوتهم وطموحهم، وحماسهم الثائر، ودمهم الفائر، وهمتهم الوثابة، وروح «اللااكتراث» التي هي من أخص خصائص الشباب، فما أن يقرع آذانهم

صوت الحق إلا ويقولون: ﴿ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا[1] الخ﴾ ... فكذلك كان أولئك الفتية المؤمنون، ما كانت في أرجلهم قيود التقاليد والأعراف، والصلات والوشائج، التي قد تثقل أرجل الطاعنين في السن، فهرعوا الى صوت الحق ولبّوا نداء الصدق...

طريق مفروش بالأزهار
وطريق مفروش بالأشواك

ثم جاء دور المحنة والبلاء والتمحيص الذي يأتي طبعا في طريق الدعوة، فيواجه الداعي موقفين، مؤداهما واحد، أو طريقين كلاهما ينصبّ في نهر واحد: طريق مفروش بالأشواك بل بالجذوات المتقدة والنار المحرقة، وطريق الاغراء بالجوائز والصلات، والمناصب والجاه، والتسهيلات والامتيازات، وكلاهما طريقان شاقان وعران تعترضهما وهدات الهلاك وهوى الدمار والبوار.

ويقول المحنكون: ان الطريق المفروش بالأزهار أشد وعورة من الطريق المفروش بالأشواك، فقد يفعل الترغيب ما لا يفعله الترهيب، وقد أكّد هذه الحقيقة الإمام احمد بن حنبل رحمه الله، فقد صمد أمام كل التهديدات

١- سورة آل عمران - ١٩٣ .

والترهيبات، بل أنواع التعذيب التي قام بها المعتصم بالله فيما يتعلق بقضية كون القرآن مخلوقا أو غير مخلوق، حتى ضرب بالسياط وانخلعت كتفه، تلك السياط التي لو صبت على الفيلة لانهارت أمامها، ولما مات المعتصم وخلفه أخوه المتوكل وطلب الامام الى مقره وبلاطه ـ وكان الامام قد حمل معه الزاد ليسدّ به رمقه، وما كان يلوث يده بالطعام الرسمي ـ وجعل يبعث اليه الصرّة من الدنانير، فقال الامام انها أشد بلاء من سياط المعتصم بالله...

والواقع أن الحكومات تستخدم الوسيلتين حسب الضرورة والأوضاع، فقد تعمل وسائل التهديد والتعذيب، وقد تستعمل وسائل الاغراء والترغيب، وقد تكون الثانية أشد من الأولى، ويكون الصمود أمامها أدق وأحرج، لأن الانسان اذا تماسك بنفسه وتجالد، فقد يخضع أمام إلحاح الابوين اللذين قد يكون لهما اتصال قوي بالبلاط وبرجال الحكومة أو يشغلان مناصب حكوميّة، اذاً فتضغط عليهما الحكومة أن يقنعا فلذة كبدهما بفكرة الحكومة، وتفتنهما بوسائل الاغراء الكثيرة، من المستقبل الزاهر، والمنصب الكبير، والجاه العريض، والمال الكثير، وبأنه من يخلفهما في شأنهما ومكانهما، اذا تنكر لهما ولده الوحيد الحبيب؟

ولكن حينما تخفق هذه الوسائل كلها، وتنهار أمام صمود المؤمن المخلص تلتجىء الحكومة الى التهديد، والى

التعذيب والتشديد، والضرب بالنار والحديد وهنالك يحتاج الى نصر الله يقوم بجانبه، ويقوي عضده ويمسك بيده.

وربطنا على قلوبهم

وهنالك ربط الله على قلوبهم الخفافة، ونفوسهم المضطربة القلقة، وألهمهم الثبات والصمود، وأخرج من قلوبهم الجبن والحزن والخوف والحيرة، والاضطراب، وملأها شجاعة وسكينة، وقوة ويقينا، ﴿اذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض﴾، وليس المراد من القيام، هو القيام المقابل للجلوس، ولكن المراد هو انبعاث العزم في قلوبهم، الذي بعثهم على التمرد على البيئة الفاسدة، الدنسة المتعفنة، التي اتخذت أربابا وآلهة كثيرة من دون الله، فأعلنوا كفرهم بكل الآلهة المصطنعة وقالوا: ﴿لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذاً شططا﴾، وقالوا ان هؤلاء أعضاء مجتمعنا وأبناء قومنا وبنو جلدتنا الذين يبدون جادّين وقورين، مجرّبين محنّكين، أذكياء عاقلين، ما لهم قد اتخذوا من دون الله الواحد الأحد الصمد آلهة شتى ولا يملكون على ألوهيتها دليلا واضحا يستندون اليه وبرهانا ساطعا يعتمدون عليه إذاً فهم يفترون على الله، وليس أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا... ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن﴾ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾.

اخوتي الأعزاء! ان هذه الآيات الكريمات من سورة الكهف تقول لنا بالتأكيد أن نحكم أولا الايمان بالله، على بصيرة وعن معرفة بصفاته وفي صورة اقتناع العقل والقلب معا.

والأمر الثاني الذي يجب أن نضعه في الاعتبار هو أن نظل على اتصال دائم بمنبع الهداية والارشاد، وأن نشعل جمرتنا الايمانية ونلهب غيرتنا الاسلامية، و أن نتلقى شحنة جديدة ودفعة جديدة، عن طريق دراسة الكتاب والسنة، وأسوة الرسول عليه السلام، وأصحابه البررة الكرام، وأتباعهم العظام، والمجاهدين المخلصين في سبيل الاسلام، وأن نجدّد ايماننا بكل ذلك، ونشحن قلوبنا بحرارة ايمانية جديدة كما تشحن البطارية عند الفراغ.

اننا نعيش في هذا العالم المادي، وقد تتلمذ على أساتذة لم تؤمن قلوبهم بهذه الحقائق الدينية الغيبية، ونواجه على كل خطوة ما يحيد بالانسان عن طريق الرحمن الى طريق الشيطان، نعيش في مجتمع تموج فيه أسباب الإلهاء عن الله... من التلفاز الى الراديو، الى الصحف، والكتب الماجنة الى السينما، والى الأدب الخليع المتهتك، حتى الأدب الذي كان يرجى أن يكون عذريا بريئا أوّ «حياديّا» على الأقل، انه عميل (AGENT) الفسق والفجور، والخلاعة

والمجون، والاباحية والاستهتار، والمثل الكاذبة، والقيم الباطلة، والعواطف النفسانية والأنانية والجنس والشهوانية، ان هذا الشر الذي يموج من حولنا قد جعلنا كأننا في خضمّ متدفق متموج - والفضل يرجع في ذلك الى الأوضاع الجاهلية التي نعيشها، والنظام التعليمي والتربوي الذي فرض علينا - ثم يقال لنا:

« ايّاك ايّاك أن تبتلّ بالماء ».

وللتفادي من « الابتلال بالماء » تحتاج الى أن نستزيد الهدي من الله « وزدناهم هدى »، ان وهج الجمرة الايمانية، وحرارة الحب والحنان، وقوة اليقين والايمان، هو الذي يذيب هذه الاغراءات الشهوانية المتنوعة كما يذيب وهج النار الشمعة، اننا لن نستطيع أن نقاومها بنظام جماعي فارغ مجرد، أو بضابطة خلقية، أصارحكم أيها السادة - في ضوء التجارب - ان الانسان لا يمكنه أن يصمد أمام قوة الاغراء والفتنة العمياء الا بقوة الايمان والعقيدة، والقوة التي يستمدها من سير الصحابة والتابعين والمؤمنين اللاحقين.

مقاومة المادية المسلّحة

ان هذه القوة لا تحصل الا بالصلاة، والدعاء والالتجاء الى

الله والصلة القوية بالله ، وتلاوة القـرآن الكـريم ، والفـزع الى الركوع والسجـود والجلـوس الى عبـاد الله الصـالحين الذيـن عضّدوا صلتهم بربهم، وأصلحوا بالهم، وأخلصوا أعمالهم .

يا سادة! اذا حاولنا أن نقاوم هذه المادية التي دجّجتها أوربا وأمريكا بأحدث الأسلحة، التي تزل أمامها أقدام الأبطال المغاوير والشجعان الأقويـاء فـاننـا لـن نملـك أن نقاومهـا بـالأنظمـة أو نظـم الأخلاق، بـل انما نستطيـع مقاومتها بقوة العقيدة والايمان، والعلاقة المتينة مع الله ، العلاقة التي تجعلنا اذا سجدنا سجدة تضطرب لها الأرض كما يقول الدكتور محمد اقبال :

« ان السجدة التي كانت تهتز لها الأرض وترتعش ، تتطلع اليها المساجد والمحاريب » .

ولا بأس اذا ارتعشت منها الأرض أو لم ترتعش ، ولكن المهم أن ترتعش قلوبنا ، وتهتز ضمائرنا ، إذا فزتم بمثل هذه السجدة، فانكم ستستطيعون أن تقاوموا المادية ، وتحتاجون الى كسب هذه السجدة الى اتباع سيد الأنام سيدنا ومولانا محمد ﷺ ، وحبّ الله ورسوله ، والتزام السنن ، واعطائها حقها من العمل والتطبيق . . . ومن الذي لا يخطىء ، ولكن المهم أن لا يكون منا الاصرار على الخطأ ، وأن نتصيّد له الدلائل ، بل نرى في النبي الأعظم ﷺ الأسوة الكاملة ،

ونصبوا الى محاكاته في الأعمال والأخلاق والسلوك، واذا ما صدرت منا أخطاء فان التوبة الصادقة كفيلة بمحوها ، ان شاء الله انه لعصر دقيق متأزم نعيش فيه نحن، لو استطعنا فيه أن نتمسك بدين الله ، ونتشبث بشرائعه وأحكامه، ونتبع سنة حبيبه وصفيه، وسعينا لاعلاء كلمة الله ، ولأن تظل راية الاسلام خفاقة ، لنكون قد استحققنا رحمة الله في الدنيا والآخرة، واستوفينا من الله الجزاء الذي لا يتصور .

ان الاسلام هو وحده الحري بالارشاد والقيادة

وما نراه في الشباب من التحمس والانتصار للاسلام، ليس من الصدفة، بل هو قضاء الله المحتوم، وأمره المبرم، ألمس ذلك فيكم الآن وأنا في «لاهور» كما لمسناه في الشباب أمثالكم في مصر والشام، وفي الأقطار الأخرى، قد رأينا فيهم، ولا سيما في الشباب الجامعي، وطلبة كليات الطب والهندسة من العاطفة الاسلامية الجيّاشة والغيرة الايمانية الملتهبة، ما قد لا نراه في الشباب الذين يتعلمون في المدارس ومراكز الثقافة الدينية الخالصة، قد رأينا في الشام أن الشباب الجامعي ولا سيما الطالبات أصبحن يعلنّ ولاءهن للاسلام، ويصارحن الوقوف بجانبه، والانتماء اليه، والانتصار له، ويقدّمن في سبيله كل نوع من التضحية، فقد أصررن على أنهن لا يحضرن في الجامعات والكليات الآ

في الحجاب الشرعي، فان قبلت الجامعات ودور التعليم والثقافة ذلك فيها، والاّ فلا حاجة لنا في التعليم والثقافة.

وكذلك وضعيّة باكستان اليوم قد أحدثت رد فعل صالح جديد في الشباب مما يدل على أن الله يريد بالاسلام وأهله خيرا، وأن الله هو الذي أراد هذا التحول وأنه يريد أن يمسك هؤلاء الشباب بزمام الحكومة، وأن يقودها الى مسار صحيح، والا فانّي هذا الحماس الاسلامي، وهذه الحركة العجيبة، والعاطفة الجديدة في الشباب الجامعي الذي عُرِف بتحرّره وانطلاقه.

العناية بتربية السيرة

اخوتي! وأريد أخيرا أن أضع أمامكم أمورا غربلتها تجاربي المحدودة: الأول أن تعنوا بتربية السيرة عناية كاملة، لأنها كالدم في الجسم الاسلامي أو الايماني للحياة، وأول وأهم ما ينقص اليوم حركاتنا الدينية هو هذا العنصر الهام، ومن هنا يسقط الشباب في وسط الطريق، وتنهار أعصابهم وتخور قواهم، ولو تمت تربية السيرة والسلوك فيهم على أساس الكتاب والسنة، لثبتوا الى آخر الطريق ثبوت الجبال الراسيات.

العناية بنفسه قبل غيره

والأمر الثاني أن تبذلوا عنايتكم على أنفسكم قبل

غيركم، فقد عمّ في هذا العصر أن المرء لا يهمه أمر نفسه كما يهمه أمر غيره، وهذه النفسيّة المريضة قد خلقتها فلسفتنا الاجتماعية والسياسية المعاصرة، فأصبح كل انسان يقع نظره على عيوب غيره يحاسبها ويتتبعها، ويعدّدها، ويعيب على كل حزب ما صنعه وينعى على كل طبقة ما أنجزته، ويؤاخذ على فلان أنه قصّر في أداء واجبه، ولا يدعه ذلك كله أن يرجع الى نفسه فينهاها عن غيرها، ويحاسبها على نقائصها ومعايبها، فيستخدم الوسائل لازالتها .

حذار أن يكون نصيب السلب أكثر من الايجاب

والأمر الثالث الذي يجب أن يكون في الاعتبار هو أن لا يطغى السلب على الايجاب، ولا بد أن يكون هناك توازن فيما بين الأمرين، فلا تعودنّ أنفسكم على أن لا تنظروا الى شيء الاّ نظرة الانتقاد، فلو ذكّركم الجلوس الى أحد بالله، وزادكم ايمانا ويقينا، ورغّبكم في الصلاة، وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان فاغتنموا ذلك، وقدروه حق قدره، ولا تقولوا انه لا فائدة في الجلوس اليه لأنه لم يوفق لاقامة دولة اسلامية، أو لم يناد بتنفيذ النظام الاسلامي من منبر سياسي، لأنكم اذا تعلمتم الصلاة والصيام ونجحتم في استيعاب الكيفية والمعنوية التي تضفي عليها الحياة والنور، فكأنكم تعلمتم طريقة صياغة الحياة صياغة اسلامية وكان ذلك أساسا لكل عمل اسلامي .

وسّعوا دراستكم

والأمر الرابع أن توسعوا دراستكم، وتعمّقوها، ولا بد لكم الاطّلاع المباشر على مصادر الاسلام الأصلية، ولا بد لكم من تعلّم اللغة العربية لأنها الوسيلة الوحيدة الى فهم الكتاب والسنة، ثم أحيطوا بالدراسة كل نوع من الكتابات ما دامت لا تدعـو الى شذوذ وانحراف، ولا يصح الاقتصار على نوع واحد من الكتابات الاسلامية وعلى طراز واحد من الكتب، التي تبحث في الاسلام، ولا يصح الظنّ في شخصية ما بأنها النموذج الكامل فلا حاجة الى غيرها، لأن النموذج الكامل والأسوة الحسنة انما هي شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام، فان كان هناك أحد يرى غير هذا الرأي فان ذلك لا يدل الا على السطحية وعلى قصر النظر وضيق التفكير وقلة الاطّلاع، وهذا ما لا يليق بشباب مسلم متفتّح القلب واسع الأفق.

وقد كنت أنا شغوفا بتنويع الدراسة، وكان من رأيي دائما أن لا بأس من قراءة كل نوع من الكتب والمؤلفات ما لم يكن مشـوبـا بـالمفـاسـد، والسمـوم التي تلحـق الضرر بالعقيدة، وبشرط أن يكون الدارس قد بلغ مبلغ التمييز بين الخير والشر، والصالح والفاسد.

انكم موضع حبّي واهتمامي

يا شباب! ان حضوري في مجلسكم لدليل على أني

أمنحكم حبي وتقديري وقد ذكرني الموقف بقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قد اجتمع حوله جمع من الصحابة، فعرض عليهم عمر رضي الله عنه، أن يسأل كل واحد منهم ربه ما يتمناه، فقال بعضهم نريد أن يكون لديّ كميّة كذا من الفضة وأنفقها في سبيل الله كما تمنى بعضهم التوفيق للعبادة، وكذلك كلّ دعا لما أحبّه، فلما جاءت نوبة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه تمنى أن لو غصّ بيته بأمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وفلان وفلان رضي الله عنهم، فيبعث كل واحد منهم الى جبهة يناسبها، وتكون كلمة الله هي العليا في أرجاء المعمورة، وكلمة الذين كفروا السلفى، وترفرف راية الاسلام على جميع البشرية على ظهر البسيطة... أيها الاخوة! ولا يمكن أن نضع أمثال هذه الآمال اليوم الا في أمثالكم.

وأخيراً لا آخرا، أحمد الله العلي القدير على انه سبحانه أتاح لنا فرصة الاجتماع بكم، والتحدث اليكم، وأبتهل اليه سبحانه أن يجعلكم في حرزكم ورعايتكم، فما نالكم مكروه، ولا أصابتكم عين ـ بأوسع معانيها ـ فقد تصيب الانسان عينه، فيبتلى باعجاب زائد بالنفس والغرور، ويوفقكم أن تضعوا مواهبكم في موضعها اللائق.

مَسْؤُولِيَّةُ العُلَمَاءِ نَحْوَ التَّحَدِّي العَصْرِيِّ الكَبِيرِ

(ألقيت هذه المحاضرة في حفلة كبيرة عقدت في قاعة جامعة التعليمات الاسلامية بمدينة «فيصل آباد» في ٢٣/ يوليو ١٩٧٨ م.

وقدم المحاضر فضيلة الشيخ عبد الرحيم أشرف مؤسس الجامعة ورئيسها وألقى فضيلة الأستاذ عبد الغفار حسن (أستاذ الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة) كلمة شكر وختام).

بعد الحمد والصلاة:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [١].

أصحاب السعادة والفضيلة، المسئولون عن الجامعة

١- سورة الجمعة - ٣.

وأساتذتها، وطلابها!

انه تغمرني موجات فرح حينما أتحدث اليكم، ولا أشعر بشيء من الغربة، لأننا جميعا متحدون في العقيدة، متجانسون في اللغة، ثم اننا ركاب سفينة واحدة، ورفاق رحلة واحدة، هي رحلة التعليم الديني، والدعوة الاسلامية، والقيام بعرضها وشرحها ونشرها.

تحدي العصر الحديث

أعتقد أن أكبر تحد للعصر الحديث، هو المادية، والأنانية والثروة، وقد ظلت هذه الفتنة تعمل عملها على امتداد العصور، لكنها اليوم برزت في الميدان قوية مخططة مسلحة بالدلائل المزورة اللماعة، والفلسفات الخاطئة البراقة، في صورة باهرة لم تظهر فيها فيما مضى من الزمان قط... نعم قد كان الناس فيما مضى في عهد ازدهار المدنية وأوج المادية الرعناء يقعون فريسة فتنة المال والترف وما يسميه القرآن «البطر»، والخضوع لأصحاب الجاه والسلطان لكنهم كانوا يشعرون - في قرارة نفوسهم - بخجل وحياء، وبأنهم خاطئون فيما يصنعون، وأنهم يشبعون شهوانيتهم ويرضون نهامتهم.

الق نظرة على التاريخ يدلك على أن الأثرياء المترفين والجبابرة المتمردين والماديين اللاهين كانوا يخضعون أمام من يرونهم متسامين عن عبادة النفس والهوى، والسلطان والمال،

بل كانوا يتأدبون مع كل من يرونهم فوق أنفسهم في كبر النفس والمروءة والعفاف، وكانوا يحذرون أن يواجهوهم أو يشافهوهم، لأنهم على علاتهم كانوا يحملون بين جنبهم «نفسا لوّامة» فكانوا يشعرون بوخز الضمير على اقتراف المظالم والمنكرات، ويرون أنهم قد حادوا عن الصراط المستقيم، وقد كان بعضهم - الذين كانوا على قمة المادية - يبكون على صنيعهم في خلواتهم وربما كانوا يعترفون بأخطائهم علنا وجهارا بضغط من الضمير الحيّ الواعي، وبأنهم وقعوا فريسة الهوى والشهوانية والأنانية.

النقطة التي يلتقي عليها المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي

ولكن اليوم أصبحت المادية تعتبر رقيّا وتقدما، وأناقة وظرافة، ومدنية، ولا اختلاف هناك بين المعسكرين الغربي والشرقي فيما يتصل بالمادية، وان كان هناك اختلاف فانه فيما يتعلق بتنظيمها وبتنسيقها، وفي أنه أي فلسفة أو أي مدرسة فكر ينبغي أن تكون متحكمة فيها وفي توزيعها، ان المعسكر الغربي - أمريكا ومن نحا نحوها - يرى أن مبدأ الحرّية الكاملة في التصرف في الملكية يطابق المنطق والصواب، ويرى المعسكر الشرقي - الكتلة الشيوعية ومن نهج نهجها - أن ملكية فرد أو جماعة أو عائلة شيء لا يقبله العقل والمنطق، لأنه يخالف العدل والمساواة، فلا بد

مـن تعميم (GENERALIZATION)وسائل الحياة على أساس المساواة، ولا بد أن تكـون الحكـومـة هـي المشرفـة عليهـا والمتحكمة فيها .

أما أسلوب الحياة، وكيف تستخدم الحياة وفيم تشغل، وكيف ينبغي أن يكون تنسيقها ، وعلى أساس يكون التطبيق بين الوسائل والغايات، وكيف ينبغي أن يكون التمتع بنتائج الحياة والثمرات، ومـا هـي كعبـة الحيـاة، ومقصـودهـا ، ومنتهاها وفيم يكمن سرّ تقدم الانسانية، فان ذلك كله لا اختلاف في شـأنـه بين الفلسفتين: الغـربيـة والشرقيـة والمعسكرين الرأسمالي والشيوعي، كلاهما يعتقدان أن الغرض الأساسي هو التمتع باللذة، والعزّ وحرية الارادة، والاباحية والانطلاق، والنـزول عنـد ارادة النفس ونـداء الهوى، واستجابة الشهوانيـة، واشبـاع الضرورات الماديـة، وايفـاء حقوق النفس، واراحة هذا الجسم المادي المكون من اللحم والدم بكل حيلة وعن كل طريق وعلى كل مستوى، ولا مبدأ ولا مصير، ولا موت ولا بعث، ولا مؤاخذة ولا حساب، ﴿ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾[1]، ولا فلسفة أعلى من فلسفتنا المادية، سواء أكانت فلسفة الأخلاق أو العقائد، أو الروحانية، ولا حقيقة فوق هذه الحقائق التي نعرفها، لأن زبدة الحقائق أننا

١ـ سورة المؤمنون ـ ٣٧ .

وجدنا في هذا العالم لكي نلهو ونتمتع ونلتذ ونمرح، ونسـرح ونرتع، ونستغل هذه الوسائل والامكانيات المنبثة، ونتقاسمها، ونأخذ بأوفر حظ من متعة الحياة، ولنزل كل شيء يحول بيننا وبين تحقيق أغراضنا.

اذاً فلا اختلاف في المبادىء والاهداف وانما الاختلاف في تحديد العوائق والعقبات، فقوم يرون أن الملوكية هي العقبة، وقوم يرون أن العائق هو الأنانية الأسريّة، وبعضهم يرى أنه هو الملكية الفردية، وآخرون يعتقدون أن الرأسمالية هي حجر عثرة في الطريق، وأمة تعتقد أن استئصال الرأسمالية هو الذي شكّل المصيبة وأمة ترى أن التوزيع الخاطىء الغير العادل هو السبب الأصيل فيما نواجهه من أزمات ومشكلات، ومجموعة بشرية ترى أن الجهل والأمية هو الداء العضال، وبعضهم يرى أن أصل الداء هو فقدان المؤسسة الصالحة واليد الأمينة القوية الغلابة التي توزّع هذه الوسائل على المجموعات البشرية بكل انصاف ومساواة.

ولا نعرف في أي دور من أدوار التاريخ الانساني أنه حظيت فيه المادية بهذا التنسيق والتهذيب والصقل، وسمّيت بهذه الأسماء البراقة الباهرة الساحرة وعلّقت عليها أمثال هذه اللافتات، الجميلة الأنيقة، الخلابة الزاهية، واستنفذت مثل هذه القوى العقلية والفكرية واستهلكت مواهب الأذكياء والعقلاء في مثل هذا السخاء والاسراف، ولا نعرف أنه

استخدمت في سبيل تعميمها وتحبيبها أمثال هذه الوسائل الجبارة، لا نعرف لكل ذلك سجلاً (RECORD) عبر التاريخ البشري كله.

التحدّي الأكبر

وعلى ذلك فان التحدي الأكبر في هذا العصر، هو تحدي المادية، والمادية كجنس له أنواع كثيرة، منها الرأسمالية (CAPITALISM) والاشتراكية (SOCIALISM) والشيوعية (COMMUNISM) وما اليها من الفلسفات الاقتصادية الكثيرة، لكن النقطة الجامعة بينها جميعا هي المادية وعبادة النفس والهوى.

الحقائق التي تضرب على جذور المادية

حينما كان الانسان قد استعبدته المعدة، والمادة، والأهواء، ولم يكن يطأطيء رأسه الا على عتبة المال والمرأة والعقار، لأن هذه كانت آلهته الحقيقية، وحينما كانت الكثرة الكاثرة من سكان هذا العالم تسجد للمخلوق دون الخالق، كان الله يرسل الرسل والأنبياء، فيعلّمونهم مراشد الخير والهدي، ويأخذون بأيديهم من حضيض الكفر والشرك الى قمة التوحيد والايمان، ويخبرونهم بأن وراء هذا العالم المشهود المعهود عالما آخر أوسع وأجمل وآنق من هذا العالم بكثير وكثير، ويقولون لهم: لو رأيتموه لفتنتم به، وتحلبت عليه أفواهكم وتلمّظت شفاهكم، ولضاقت هذه الدنيا

عليكم بما رحبت، ولشقت عليكم الحياة كما شقت على السمك الذي أخرج من الماء ووضع على الأرض، أو على الطير الذي وضع في قفص ضيق فيرفرف بجناحيه، ولاشمأززتم من دنياكم هذه التي تنفقون في سبيلها أعز متاع عندكم، وتضحّون بكل ما تملكونه من معنوية، وعلم وثقافة... وذلك ما نددت به الصحف السماوية مرة بعد أخرى، وبأساليب كثيرة وفي كلمات متنوعة: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾[1] ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾[2]، وقد أتى التعبير في بعض المواضع بـ «حطام الدنيا» وعبّره لسان النبوة بـ «لعاعة»... دلالة على منتهى التفاهة والضآلة.

قد كشف هؤلاء الأنبياء والمرسلون اللثام عن حقيقة هذه الدنيا، ودلّوا الناس على أنها لا تعدل جناح بعوضة عند الله، وانها كسراب خادع وظلّ زائل، وكدويرة يبنيها الصغار على الرمال ما لها من قرار، ولو درستم التاريخ لصدقتم هذه الحقيقة على بصيرة وهدي وعن تجربة.

لدوا للموت وابنوا للخراب

زرنا في بغداد في رحلتنا سنة ١٩٧٣ م المتحف الكبير

١- سورة آل عمران - ٧٧.

٢- سورة الحديد - ٢٠.

الذي يجمع بين آثار الحضارات والمدنيات البائدة فيما قبل التاريخ التي ازدهرت في وادي الفرات وفي غيره، تمثل عصر نمرود وغيره من الملوك والسلاطين المعاصرين، له والسابقين عليه واللاحقين به، والامبراطوريات والحكومات الأخرى الكثيرة، كنا نشاهد هذه الآثار، وكأننا في رحلة تاريخية سريعة يأتي دور ويذهب دور، وتمضي الأدوار كلها كفصول مسرحية، وواصلنا الرحلة منذ ما قبل التاريخ الى العهد العباسي، فالى عهد السلاجقة، فالى عهد التتار، فالى عهد الأتراك، فالى عهد الانجليز، فالى عهد فيصل بن حسين الخ... وتأكدوا كأني أتخمت من رؤية هذه الفصول التي كانت تمثل تقلبات الزمان، واختلاف الليالي والأيام، وكأني أعاني الغثيان، اذا أكلت شيئا مريرا تعافه النفس، فتعبت نفسي، وكلّ ذهني، وأثقل فكري، وكأني في دنيا الأحلام أو الأساطير والأوهام، ان بعض هذه الحكومات والامبراطوريات قد تكون قد استغرقت مدة ألف، أو خمس مائة سنة، أو أقل أو أكثر في قطع مراحل الانحطاط، لكني قد شعرت كأن ذلك كله قد تمّ في ساعات، ولكن الناس مخدوعون فيحسبونها ألف سنة أو خمس مائة الخ... وكأني قائم على أنقاض الانسانية، وأطلال الحضارات والمدنيات، والحكومات والامبراطوريات، وكذلك يقوم عليها كل الأجيال المتلاحقة «قل متاع الدنيا قليل».

ان الدنيا ليست موضع هيام وغرام

قد أراد الله لهذه الدنيا البقاء والعمران فلم يعرّ حقيقتها أمام عامة البشر كما جلّاها للمصطفين الاخيار والمؤمنين المخلصين من عباده، والا لأقفرت وأوحشت ولما اقبل احد على الانتاج والابتكار، وتشييد البنيان، واقامة المصانع، ولتعطلت الحركة والنشاط، وتوقفت الرحلة البشرية في مجالات الحياة، وجلس كل في عقر داره عاطلا ضائعاً، يائساً متخاذلا، وربما لفظ انفاسه الاخيرة.

ولكن الانبياء عليهم السلام ونائبيهم قد أعطوا كل شيء حقه على الرغم من علمهم بتفاهة الدنيا وضآلتها، فأدوا مسئوليتهم نحو هذا العالم وأهله، ونحو أقربائهم وأهليهم، وجيرانهم وذوي مؤدتهم، ونحو الانسانية جمعاء، وعاشوا مستجيبين لمتطلبات الحياة، واضعين كل شيء في موضعه اللائق، وواجهوا تحدّي الحياة في صبر وجلادة، وعاشوا عيشة طهر وصفاء، وعفة وحياء، لا يبالون بشوكة الملوك وأبهتهم، يتحدثون اليهم كما يتحدث أحدنا الى المريض، كانوا يرونهم مرضى مصابين بداء عضال، فيرثون لحالهم ويخافون عليهم مآلهم، ويتوجعون عليهم كما يتوجع أحدنا على جار له وقع الحريق في بيته فأتى على كل ما لديه من الأخضر واليابس، ألم تروا كيف أجاب سيدنا ربعي بن عامر رضي الله عنه «رستم» قائد الجيوش الايرانية حين استوضحه عن اغراض الغزو الـذي لم يكن للفرس به

عهد، فقال رستم: ما جاء بكم؟، فقال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا الى سعتها، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام[1]».

يا سادة! قلت في محاضرتي بالديوان الاميري بأبو ظبي[2]: لو قال ربعي بن عامر: «لنخرج من ضيق الدنيا الى سعة الآخرة»، لم أستغرب ذلك لانه آمن بأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وآمن بالآخرة التي لا آخر لها وبالجنة التي لا حدّ لها ولا نهاية، وقد قرأ في الكتاب الذي قرأه وآمن به وعاش فيه ﴿وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والارض أعدت للمتقين﴾[3]، وعرف قول رسوله في غزوة بدر: «قوموا الى جنة عرضها السماوات والارض[4]» وقوله بمناسبة أخرى: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها[5]».

ولكن موضع الاستغراب هو قوله: «من ضيق الدنيا الى سعتها» كيف ساغ لانسان ربما قد وضع الحجر على بطنه، وربما لم يملك قوت يومه، وكانت ثيابه متخرقة

١ـ البداية والنهاية لابن كثير، ج/٧، ص ٣٩، طبع بيروت ١٩٦٦ م.

٢ـ المحاضرة التي ألقيتها بعنوان: «نظرة مؤمن واع الى المدنيات المعاصرة الزائفة» في ٣/محرم الحرام ١٣٩٧ هـ (٢٣/ ١٢/ ١٩٧٦ م).

٣ـ آل عمران ـ ١٣٣.

٤ـ رواه مسلم.

٥ـ حديث متفق عليه رواه ابو هريرة رضي الله عنه.

وأجفانه بالية، أن يقول لانسان وهو في غاية أبهته، وفي زهوه وعلى قمة مجده يعيش في رغد من العيش ويتقلب في اعطاف النعيم، قد اتسعت له الدنيا، ولانت له الحياة: اني جئت لانقلك من زنزانة الدنيا الى فضاء رحب فسيح، أفهل كان العرب يعيشون في بحبوحة من العيش، أفما كانوا في شظف من العيش وفي جهد وتقشف وتخشن في الحياة، لا يملكون وسائل الحياة، ولا يكادون يشبعون بطونهم، ولا بخبز الشعير، يأوون الى أخبية من جلود الابل، وفي أكواخ من المدر، فما الذي جعله يقولْ لرستم: ادرك نفسك فانك في بؤس وشقاء، وحرمان وبلاء، أنت حبيس في قفص ضيق، يا لسوء حظّك، وخسة نفسك، وفتور همتك وقصر نظرك، ترضى بحبات شعير تطرح اليك ... أني متأسف على حالك، أتيت أخلصك من هذا المأزق، وأحررك لكي تستطيع التحليق في هذا الفضاء الرحب المترامي.

يا سادة! تلك هي النظرة الحقيقية التي كان ينظر بها الرعيل الاول، ومن تبعهم باحسان الى هذه الدنيا وحطامها الفاني وعيشها الزائل، فكان الناس يؤمونهم يعرضون عليهم الداء، ويستوصفونهم الدواء ... وقد كان شيخ الاسلام ابن تيمية يقول: «ان جنتي وبستاني في صدري، ان رحت فهي معي لا تفارقني[1]» لأنه كان يتوكل على الله، ويلوذ

١- الوابل الصيب، ص/ ٦٦.

به، وبه يستعين، واليه يرجع، ومنه يرجو، فكان لا يخاف أحداً ولا يراه موضع النفع والضرر، فكان يجد في الصلاة قرة عينه، في الصيام لذة الطعام والشراب، وفي الابتهال الى الله والاطّراح على عتبة حلاوة لا تعد لها حلاوة.

وأمثال هؤلاء الناس كانوا نماذج الانسانية المنشودة المقصودة، استغلوا مواهبهم، واستخدموها لما خلقت له حوّلوا البلد او الحيّ الذي سكنوه الى جنة ونعيم، غطّوه سكينة وعدلا، ومواساة وبرّاً، وعطفاً وخدمة، وعاشوا في الدنيا وزرعوا فيها مؤهلاتهم واستثمروها، ولكنهم لم يجعلوها «عجلاً» يعبد او إلهاً يسجد له، وما هابوا بها هياماً، بل ظلوا يقولون: «اللهم لا عيش الا عيش الآخرة» لانهم كانوا يدركون حقيقة هذا العالم المادي، ولكنهم رغم ذلك، تقدموا في كل مجالات الحياة وتحركوا في كل واد، فشادوا البنيان، وبنوا المساجد، وأقاموا المدارس والمعاهد، وأسسوا المصانع والمعامل، ونشروا الاسلام، وزرعوا عقيدة التوحيد، وفتحوا فتوحات واسعة، وأخضعوا الدول، وثلوا العروش وزلزلوا الجنود والبنود، ووضعوا علوماً وابتكروا فنوناً، وأثروا المكتبات، وصنفوا وألفوا، وقادوا وسادوا، وعلّموا ودرسوا، واقاموا التاريخ على أساس محكم متين لا يزول... صنعوا كل ذلك، ولكن الذي يضع الفرق الملموس بيننا وبينهم انهم لم يحسبوا الدنيا غايتهم الاخيرة، بل كانوا يرونها مرحلة بدائية

أصبحت المادية اليوم راكباً بدل أن يكون مركبا

كان هؤلاء المخلصون العظام يحطّمون طلسم المادة، ويكسرون سحرها ويزيفون لمعانها، لانهم قد تحرروا من ربقتهـا، وتمرّدوا عليهـا، وأخضعـوهـا ولم يخضعـوا لها، وركبوها ولم يكونوا مراكب لها، والخطّ الفاصل بيننا وبينهم أننا اصبحنا اليوم مراكب للمادية، بدل أن نكون راكبين عليها، او نحن راكبون سكارى قد انفلت الزمام من أيدينا، وانزلقت أرجلنا عن الركب، فتهرع بنا المادية الجامحة الى حيث تشاء، ولا نملك حولا ولا طولا، ولا نكاد ندري كيف نكبحها، أو نتخلص منها، حتى لا تهوى بنا في هوة الهلاك او في نهر فياض، أو بحر متلاطم، فيكون آخر أمرنا.

تلك هي قصة مدينتنا بجميع اجزائها وأبعادها، قد تمردت علينـا وجمحـت لـدينـا، واستعصي علينـا تطـويعهـا واخضاعها، وكبح جماحها، وانما تحدّاها اولئك الابرار الاخيار الذين وفقهم الله أن يثوروا عليها، ويتمردوا على مفاتنها، وبهارجها التي تبهر العيون، وتـأخـذ بـالقلـوب، وتتصيّد العقول، فكانوا يشعرون كأنهم في جنة ونعيم، وقد قال بعضهم ماذا يصنع الناس بي، ان وسائل التنعم في

صدري، فمن الذي يستطيع ان ينتزعها، وقال بعضهم: والله لو أن أهل الدنيا علموا مدى ما نحن فيه من لذة رغيدة، ونعمة وفيرة لغاروا عليها ولحالـدونـا بـالسيـوف ولحاولوا أن ينتزعوا منا هذا العيش اللذيذ، زعماً منهم أن في المكان الذي نحن فيه كنزاً دفيناً، أو منبعاً مكتوماً للرزق، أو مصدراً مخبوءاً للفرح والسرور والطمأنينة ومن هنا يجلس في هذا المكان، هادئاً راضياً، ساكناً آمناً، مرحاً فرحاً، جذلان نشوان، فلنزله من مكانه ولننفه الى الغابة، ولنحفره حفرتنا لآبار البترول، ولنكتشف الثروة المخبوءةفيه اكتشافنا للنفط والزيت.

روح القناعة

أيها السادة! انما كان يحارب المادية أولئك الذين كانوا يتمتعون برصيد القناعة، ولا يرضون لانفسهم أي مساومة وتقويم، ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يصيدهم، وكانوا يقولون بملء أفـواههـم: « نـرى العنقـاء أكبر أن تصـادا »، ويقولون لهذه الدنيا الخداعة الغرارة: « يا دنيا أبي تعرضت أم لي تشوفت هيهات هيهات، غرّي غيرى، قد بتتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك[1] »، ويقولون للمساومين جرّبوا غيري، أما نحن فلا نرضى بأي ثمن مهما كان غالياً وعالياً، ولا ننهار أمام

١- من قول علي رضي الله عنه كما يروي عنه ضرار بن ضمرة، اقرأ « صفة الصفوة » لابن الجوزي.

أي منصب او جاه مهما كان مشرفاً ومحسوداً ، ومرموقاً ، لا ، لن نبيع كرامتنا ، ولن نبيع ضمائرنا ، ولن نبيع طمأنينة قلوبنا ، وقناعة نفوسنا ، لا لن نلوّث عفتنا ومروءتنا، ولن نكدّر صفو حياتنا ، فلا تتعبوا نفوسكم، دون جدوى ، ولا تنضوا ركابكم دون فائدة .

هذا الشيخ الكبير الميرزا مظهر جان جانان الشهيد رحمه الله قد عرض عليه ملك دهلى أن يقبل منه هدية كبيرة من المال، فقال الشيخ: ان الله تعالى يقول: « قل متاع الدنيا قليل[١] » ... أما آسيا فواحدة من قارات العالم، والهند واحد من بلدانها ، وأنت تحكم جزءاً صغيراً من هذا البلد ، فلا أريد أن أرزأكم فيه ، وأشاطركم ايّاه .

وكان هناك شيخ في « برهانبور» بالهند ، فبدأ الامبراطور المغولي اورنك زيب عالمكير رحمه الله يزوره ويختلف اليه، فقال الشيخ: قد كنت اخترت هذا المكان المتواضع لنفسي، فأن كان قد وقع من الملك موقعاً حسناً ، وأصبح يغارنا عليه، فليرض به، وليدعنا نغادره الى مكان آخر .

من المؤسف جداً أن احوال هؤلاء الصالحين الساهرين في عبادة الله قد قيّدت بصور لا تعكس حياتهم عكساً صحيحاً ، فلا نستوحي منها روح اتباع الشريعة والحرص

١- سورة آل عمران - ٧٧ .

على التمسك بالسنّة، واحياء الليالي وشغفهم بالكتاب والسنّة، وعيشهم في تلاوة القرآن، وتفانيهم في حب الله، وأخذهم بروح الشريعة، وعضهم بالنواجذ على لب الاسلام وزبدته، وأصبحنا لا نستشف من أحوالهم - كما يقول مؤلف «تاريخ كجرات» العلامة الشريف السيد/عبد الحي الحسني رحمه الله[1] - «من قرأ كتب التراجم وسير العلماء الربانيين المربين المؤلفة على الاسلوب التقليدي القديم، عرف أنهم لم يكن لهم هم ولا لذة الا في خرق القوانين الطبيعية والتمرد على السنن الالهية، وما كان يهمهم الا التصرف في الاكوان، والتحكّم في العناصر الأربعة، والمواليد الثلاثة، فنراهم يحيون الاموات، ويميتون الاحياء، وينتزعون السفينة التي غرقت في قعر الماء باشارة من طرفهم، أو بتلميح من أصابعهم لا شغل لهم غير ذلك».

والله ان ذلك صورة مشوّهة وتصوير خاطىء لحياتهم، انهم في الواقع كانوا من ذوي التعمق في الكتاب والسنة، والتشرب لروح الشريعة، ولئن كان هناك نماذج شاردة تدل على خلاف ما نقول، فلا يستدلّ بها على القوم جميعاً، لانه من الاجحاف وسؤ الانصاف.

أخوتي الكرام! تلوت عليكم الآية الكريمة: ﴿هو الذي

١- هو والد كاتب هذه السطور، والأمين العام لندوة العلماء الأسبق، ومؤرخ الهند الكبير، ومؤلف كتاب «نزهة الخواطر» في تراجم أعيان الهند في ثمانية مجلدات، وكتاب «الهند في العهد الاسلامي» و «الثقافة الاسلامية في الهند»، توفي رحمه الله في ١٣٤١ هـ.

بعث في الأميين رسولا منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[1]، الآية تذكر تلك الاركان الاربعة التي بعث الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم لتحقيقها وتكميلها، وقد توارثها القائمون بمهمة النبوة بعده صلى الله عليه وسلم ... فالاول هو تلاوة الكتاب (القرآن الكريم) وتشاهدون مظاهرها في كل حفلة ولدى كل مناسبة وعند كل صلاة، وفي كل بيت ومدرسة، ومعهد للتعليم والتربية، وقد اقيمت لتحفيظ القرآن ولتعليم تجويده وترتيله وقراءته مدارس لا تعد ولا تحصى، وستبقى هذه السلسلة المباركة الطيبة الى يوم القيامة ان شاء الله تعالى ﴿انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾[2]، والثاني هو تعليم الكتاب، والثالث هو تعليم الحكمة والرابع هو تزكية النفوس.

المراد من «الحكمة»

والمراد من «الحكمة» الاخلاق الفاضلة، والآداب الاسلامية، لان القرآن قد أطلق لفظ «الحكمة» على هذه الاخلاق والآداب في مواضع شتى، ذكر في سورة «الاسراء» التعاليم الخلقية الاساسية في موضع واحد، يقول تعالى: «وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً»

١- الجمعة ـ ٢.

٢- سورة الحجر ـ ٩

الى قوله «كل ذلك كان سيّئه عند ربك مكروهاً». تلك هي خمس عشرة آية، فيها النهي عن الشرك، والامر بالاحسان الى الوالدين، وخفض الجناح لهما، وايتاء ذي القربى والمسكين، وابن السبيل، والنهي عن التبذير، والامر بالتلطّف لهم بالقول، والنهي عن الافراط والتفريط، والنهي عن قتل الاولاد، وعن الزنا، وعن قتل النفس الا بحقها، وعن الاسراف في القصاص، والنهي عن أكل مال اليتيم الا بالحق، والامر بالايفاء بالعهد، وايفاء الكيل والميزان، والنهي عن التبختر والمرح الزائد، وبعد ما انتهى من ذكر هذه التعاليم الخلقية التي تلتقي عليها الاديان والامم، والفطر المستقيمة، والعقول السليمة، من أول العصر الى آخره، ختمها بقوله: ﴿ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة﴾ [1].

وكذلك شأن القرآن في سورة لقمان، فلو قرأت قوله تعالى: ﴿واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تشرك بالله، ان الشرك لظلم عظيم﴾ [2] الى قوله تعالى: ﴿واقصد في مشيك، واغضض من صوتك، أن أنكر الاصوات لصوت الحمير﴾، وقرأت افتتاحية هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله، ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فأن الله غني حميد﴾ [3]، علمت أن

١- الاسراء ـ ٣٩.

٢- لقمان ـ ١٣.

٣- لقمان ـ ١٢.

كل ما صدر عن لقمان من التعاليم الخلقية والوصايا الحكيمة انما نبعت عن هذه الحكمة التي أكرم الله بها لقمان، وكذلك لو قرأت قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ (١) الى قوله ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم﴾ (٢)، الى قوله: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكّر الا اولوا الالباب﴾ (٣) ،علمت أن الحكمة في المصطلح القرآني الالهي لها صله سبقة وثيقة بالاخلاق (٤).

لا يتم تعليم الكتاب والحكمة بدون «التزكية»

والتزكية هي تهذيب النفس، وتحليتها بالفضائل، وتخليتها من الرذائل تخليتها من الحسد والبغض وحب الدنيا وحب الجاه والاخلاد الى الارض، وكراهية الموت والحرص والجشع، وتحليتها بحب الله، والاقبال على الآخرة والرغبة في الجنة وايثار الآخرة على العاجلة، والطمع في رضا الله وثوابه. ومن وظيفة كل مدرسة اسلامية او جامعة اسلامية، ومركز اسلامي للتعليم والثقافة، ان تخرّج رجالا

١- البقرة - ٢٦١ . ٢- البقرة - ٢٦٨ . ٣- البقرة - ٢٦٩ .

٤- قد انتبهنا لهذه النكتة بحديث لأستاذنا العلامة المحقق السيد سليمان الندوي رحمه الله، كان يتكلم فيه عن معنى الحكمة في القرآن .

يقومون عن جدارة ومقدرة بالتلاوة وبتعليم الكتاب والحكمة وبالتزكية: الاركان الاربعة والمقاصد الاولى التي كانت لها البعثة، ويخلفون الانبياء في مهمة الدعوة ولا يتم تعليم الكتاب والحكمة والتلاوة، ما لم يكن مقروناً بالتزكية والاحسان، أعني ان العلماء لا يستطيعون ان يؤدوا دورهم المطلوب حتى يتخلصوا من عبادة النفس والهوى، والخضوع لدواعي النفس الامارة بـالسوء، وعادوا لا يحيد بهم أكبر كمية من الثراء، واي نوع من العز والشرف، وأي جاه محسود، ومنصب مرموق عن مبادئهم وأغراضهم، ودعوتهم ومهمتهم، وعن اسلوب حياتهم الاسلامي، وعن مستواهم السامي.

يا سادة! ان العرب والعجم لا ينقصهم اليوم شيء الا حياة قناعة وزهد، ان الانسان لا يخضع الا حيث يجد ما لا يوجد عنده، تلك هي القاعدة التي لا تختلف في الشرق والغرب، اننا لن نعجب الا بمن نراه أفضل منا بأي وجه من الوجوه، أما اذا كان أحد يستوي معنا، ويوجد عندنا كل ما يوجد عنده من علم او شرف، او ثراء ورخاء وما الى ذلك، ولو بفرق يسير، وباختلاف في الكمية، فلن تأخذنا منه روعة، ولن ينال منا الاعجاب والتقدير، فالذين أخذوا بالمادية «وأشربوا في قلوبهم العجل»، وأصبحوا لا يجدون للمادة بديلا، ولا يرون عنها محيصاً، حين يقصدون العلماء ورجال الدين، ويجدونهم مثلهم في الاقبال على الدنيا،

والطمع في حطامها، ويدرسون حياتهم في بيوتهم، وأسلوب عيشتهم، ومستوى معيشتهم، يصدرون عنهم وهم يحملون سوء الظن بهم، ولا يتأثرون بهم في قليل او كثير، اننا نحتاج اليوم الى علماء الدين الذين يحسنون عملية تلاوة الكتاب، وتعليم الكتاب والحكمة، والتزكية، وينوبون الانبياء الكرام عليهم السلام في مقاصد البعثة والنبوة عن جدارة واستحقاق، «ان الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، لكن ورثوا هذا العلم»[1].

ان أكبر التحدي اليوم هو المادية، ولا يمكن مقاومتها الا بسلاح التمرد عليها، والزهد في زخارف الدنيا، والتسامي عن سفاسف الامور بأوسع المعاني وأعمقها وأشملها، وتأكيد هذه الحقيقة بالقول والعمل وأسلوب الحياة.

اننا لا ندعو بذلك الى الامتناع عن الطيبات، وتحريم الانتفاع بوسائل الحياة ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق﴾[2]، ﴿يا ايها النبي لم تحرّم ما أحل الله لك﴾[3]... نعم لنتمتع بالمباحات، ولنتمتع بالطيبات ولنستغل وسائل الحياة، واذا كنا نستطيع أن

١ـ حديث متفق عليه واللفظ للبخاري.

٢ـ سورة الأعراف ـ ٣٢.

٣ـ سورة التحريم ـ ١.

نأكل اللذيذ من الطعام، ونتناول المريء من الشراب ،ونلبس، الوضيء من اللباس، ونسكن الهنيء من البيت، فلا بأس بذلك ولا حاجة الى أن نتكلف في الزهد فيه، كما روي عن بعض غلاة المتصوفين، أنه كان يلقي الماء في الادام المطبوخ المهيأ للاكل حتى يفقد طعمه، وبعضهم كان يضع الملح أكثر من القدر المطلوب حتى لا يعود الطعام سائغاً هنيئاً، فمثل هذه «التزكية» ليس من الاسلام في شيء، وسماه بعض السلف بـ «الزهد العجمي» بل المهم أن نتجرد عن الجشع والتهالك على الدنيا، وعن أن يكون شعارنا بصدد المادة «هل من مزيد» فلا تشبعنا أي كمية من المال، ولا اي قدر من الثراء والرخاء، ويجب ان يكون علماء الدين على جانب من الزهد في هذه السفاسف.

الحاجة الى رجال متمردين على المادية مستأمين على الاغراض

أيها السادة: ان العنصر الهام الاقوى من الوسائل التي نحتاج اليها اليوم من أجل انقاذ المجتمع الاسلامي ـ والتي تحدثت عنها في كل مناسبة وفي كل ناد وواد عبر باكستان من «كراتشي» الى «اسلام آباد» ومنها الى «فيصل آباد» وفي المدن العربية من قبل ـ هو حياة القناعة والزهد، والاباء والشمم التي يجب أن يعيشها علماؤنا، انه لزام على العلماء أن تكون حياتهم مثالية تشف عن أنهم من

طراز آخر فريد، ومن طبقة خاصة ذات مميّزات، وتدل دلالة صارخة على أنهم ورثة الانبياء والنائبون عنهم، فيتبعون هديهم، ويسيرون سيرتهم، ويحذون حذوهم وليسوا صرعى المادية وقتلى القطيفة والخميصة، وعبيد الدينار والدرهم، يشعر جليسهم بتفاهة الدنيا وضآلتها، وأن المال والثروة ليس كل شيء في حياة الانسان، وأن يثبتوا بأسلوب حياتهم، وبابائهم، وكبر نفسهم، وتساميهم عن الاغراض، انهم هم الطلبة وليسوا طالبين، فليتردد اليهم من شاء الف مرة ولكنهم لا يترددون لشيء الى أحد الا من أجل تبليغ الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو من أجل تحقيق واجب ديني، واحياء سنة، لا من اجل تحقيق غرض شخصي، أو لشفاعة ووساطة.

ليس هناك شيء يملأ هذا الفراغ

انها حاجة باكستان وكل بلد اسلامي الاكيدة، وليس هناك شيء يملأ هذا الفراغ لا يملأه التصنيف والتأليف، ولا الخطابة والكتابة، ولا البحث والسياسة، ولا الكلام الساحر الاخاذ، انه يجب أن يكون هناك رجال يؤمهم رجال السياسة والسلطة والقوة، راغمين مضطرين مدفوعين، ويجدون عندهم دواء لدائهم، وشفاء من سقهم، ويشعرون بتفاهتهم مقابل عباد الله.

وقد قلت في مناسبة أخرى: انه اذا كنتم لا ترون حاجة الى «التزكية» و «الاحسان» فلا بدّ اذاً من شيء آخر يقوم مقامها ويؤدي دورها، ويشعر الناس بأنهم مصابون في معنوياتهم ومنقوصون في أخلاقهم، وسافلون في سلوكهم وعاداتهم، ويشعرون بعد الجلوس الى صاحبه بقوة جديدة، وبروح جديدة، وتلوت بهذه المناسبة بيت الحطيئة:

أقلوا عليهم لا أبا لابيكم
من اللوم أو سدّوا المكان الذي سدّوا

أيها الاخوة! اذا كنتم تلغون مستشفى فلا بد اذاً من مستشفى آخر يقوم مقامه لان المستشفى لا ينوب عنه الا مستشفى، والطبيب لا يسد انه الا طبيب فاذا ما أغلقتم مستشفى، وفتحتم مكانه حماماً مثلا، أو مكتبة، أو مدرسة، فانها - على الاعتراف بقيمتها - لا تغني غناءه، ولا تفعل فعله.

ان تحدي العصر الحاضر هو المادية، وردّها الصحيح المشروع المعقول هو تزكية النفس، الغير المشبوبة بشيء لا يوجد نظيره في الكتاب والسنة، وفيما تعامل به المسلمون في عهد النبوة - على صاحبها الصلاة والسلام - وعهد الصحابة، فليكن الحاملون للوائها راسخين في العلم وراسخين في الدين معاً، فاهمين لروح الشريعة، متشربين لحقيقة الاسلام... اللهم

وفقنا لما تحب وترضى... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الموضوع | الصفحة